
بيت سيئ السمعة
نجيب محفوظ

بيت سيئ السمعة



بيت سيئ السمعة

تأليف

نجيب محفوظ

النــاشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

قبيل الرحيل

لم تبق الا أيام معـــدودة قبيل الرحيـــل . لذلك بدت الاسكندرية لطيفة جذابة كما ينبغى لها قبيل الرحيل . وهو لا يدرى متى يراها مرة أخـــرى اذ أنه يمضى عطلتـــه عادة عند الأهـــل فى الريف ولذلك فالذى كان موطنا للوحشـــة والملل انقلب مبعثا للحنان والأشواق فى نظرة الوداع . حتى مجلسه المعتاد منذ أربع سنوات بقهوة سيدى جابر تجدد للتو شبابه ، وقال لنفسه وهو يدخن النارجيلة هيهات أن يجد جوا مناسبا لترطيب التبغ كجو الاسكندرية ، أما النادل الذى جاء بالقهوة فقد قال بأسف :

ـــ ستوحشنا كثيرا يا بيه ..

فابتسم اليه شاكرا ، وعند ذاك دخلت امرأة . هى .. هى .. التى تتردد على القهوة من شهر لآخر ، التى أطلق عليها امرأة سيدى جابر ، التى تجاهلها طوال أربعة أعوام ، وكانت اختفت منذ أواخر الصيف . ها هى فى فستان شتوى ، مطوقة الوجه باشارب وردى ، متلفعة بشال مرصع بالترتر ، ملابس توافق الخريف الزاحف وتلك السحب البيضـــاء التى أخفت قرص الشمس وطرحت لونها الهـــادىء الغامض على الشوارع شبه

المقفرة . وجلست الى جانب الرومى صاحب القهوة ، وتبادلا كالعادة قليلا من الكلام وكثيرا من الصمت ، يغشاهما جو جاد كأنهما رجلان ، ومن رجال الأعمال على الأرجح . وذاك كان شأنهما من زمان . ومرة همس النادل فى أذنه :

ــ أليست جميلة ؟ ..

رأى عينين واسعتين مقتحمتين ، ووجنتين رياتتين ، واغراء فى هالة من الثقة بالنفس والحنكة ، فقال وقتذاك دون تردد :

ــ ليست الطراز الذى يوافقنى .. !

اليوم تبدو مغــرية فحسب كالاسكندرية قبيل الرحيل . وقال للنادل :

ــ أربعة أعوام عشتها فى الاسكندرية ومع ذلك فلم أزر ــ ولو مرة واحدة ــ لا حديقة الحيوان ولا أنطونيادس ولا الآثار الاغريقية الرومانية ولا هذه المرأة ..

فابتسم النادل قائلا :

ــ وأسيوط لن تجد فيها شيئا ..

وبعث الى المــرأة بنظرة بدائية ولم يكن فى القهــوة الا منهمكان فى النرد فأجابته بعمق : فقال للنادل :

ــ أرنى شطارتك ..

انتقلت الى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة . وراح يؤكد لها أن تعارفهما فرصة سعيدة حقا فقالت بدلال بارد :

ــ أنت كشجرة المانجو ؟

فرفع حاجبيه مستفهما فقالت :



انتقلت الى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة .
وراح يؤكد لها أن تعارفهما فرصـــة سعيدة ..

ـــ تحتاج الى خدمة طويلة وصبر !

فهرب من الاعتذار برفع قدحه هامسا « صحتك » . وقضما الزيتون الأخضر وهما يترامقان فى صمت حتى قال :

ـــ البيت على بعد دقائق !

فقالت بلا تلعثم :

ـــ جنيهان ! ... والآن من فضلك ..

ودستهما فى حقيبتها وهما يغادران القهــوة . وأثنت على الشقة الصــغيرة المهندمة فأثنى بدوره على البواب صــاحب الفضل . وجاء بطبق فاكهة ووضعه على خوان على كثب من الفراش . وسرعان ما تعانقا دون ما كلمة واحدة . وامتلأ الصمت بتعابير غامضة وهمسات من عالم آخر . واستحكم ظلام المغيب فى جو الحجرة المغلق . وارتجت مصاريع النوافذ بريح مباغتة كما يقع كثيرا فى الخريف . وما لبث لحن المطر أن عزف فوق الجدران . ورفع الى النافذة القــريبة نظرة محمومة ثم همس مستسلما :

ـــ جو متقلب لا أمان له ..

ولكنه استمتع بدفء وراحة عميقة . وانتبه الى الظلمة الشديدة فمد يده الى الأباچورة فأضاء مصباحها . ولحن المطر ما زال يعزف ولكنه خف جدا موحيا بالختام . ونظر اليها فرآها مغمضة العينين كالنائمة . وهاله منظر جفنها الكبير كورقة وردة . ولاحت منه نظرة الى المرآة البيضاوية فرأى صورة لشخصه تستحق الرثاء . وكف المطر عن العزف تماما . وسألها :

ــ نائمة ؟

فأجابت دون أن تفتح عينيها :

ــ لا أنام قبل الفجر ...

وقشر موزة ورشقها برفق بين شفتيها الغليظتين فجلست نصف جلسة وتسليا معا بالفاكهة . وقالت :

ــ قال الخواجا انك مسافر بعد غد ... ولكن ما اسمك ؟

وتذكر وهو يدارى ابتسامة أنهما بدءا بالعناق قبل التعارف . قال ان اسمه بركات ، موظف منقول الى أسيوط ، فقالت وهى تمسح ظاهر يدها بباطن قشرة الموز :

ــ اسمى دنيا ..

فقال لنفسه : اسم غريب وجميل ولكنه بلا شك زائف ككل شىء فى الجلسة ، وشعر بالملل يسترده من الحلم حتى حسد المنهمكين فى القهوة . وقصت عن الماضى والمصير قصة فقال لنفسه : « قصة واحدة .. لا جديد ألبتة ! » . وسألته عن شقته وأثاثها فأجاب :

ــ بعتها بكل ما فيها ... وبعد غد سيحل بها آخر ..

لم يعد بالحجرة الا عبير الموز والفتور . ولولا الجنيهان لتقوض المجلس . وفى ذروة من ضيقه رآها وهى تمد ذراعها الى حقيبتها فوق الكنبة ، ثم رآها وهى تستخرج منها الجنيهين . لحظها بطرف متسائلا فاذا بها تميل نحو الناحية الأخرى من الفراش لتودع الورقتين فى درج التواليت . ونظرت اليه وهى تبتسم فتلقى نظرتها بعين لم تفهم شيئا ، وسألها :

ـــ لمه ؟

فقالت وهى تسبل جفنيها :

ـــ نقودك ردت اليك ..

استيقظ من الفتور ولكنه لم يفهم شيئا فقالت بدلال :

ـــ أنت فاهم ولكنك تتغابى ، هذا كل ما فى الأمر !

وأقسم لها أنه لا يتغابى أبدا فقالت :

ـــ لا لزوم للنقود فى هذه الحال ..

ـــ أية حال ؟

فطوقت عنقه بذراعها السمراء وهو يضطرب من الانفعال وهمست فى أذنه :

ـــ الرضى ! .. فهكذا أفعل اذا رضيت نفسى ..

وغرق فى نشوة فرح لم يجربها من قبل حتى رقصت الجدران ولكنه هتف فى شىء من الحياء :

ـــ لا .. لا ..

وكتمت احتجاجه بقبلة دسمة فذاب اعتراضه فى فرحة أشمل حتى ود أن ينعم كل شىء بالأفراح . واندفع يعد المكان لسهرة طويلة سعيدة فمضى الى الصالة ففتح الراديو ، ونادى البواب فأمره باحضار شراب وشواء ، ثم رجع الى الحجرة وهو يقول :

ـــ كم مرة رأيتك فى القهوة طوال أربعة أعوام ؟!.. ولكننى أحمق ..

ـــ والرحيل ؟ !

فهز رأسه بأسف ثم تمتم :

ـــ بعد غد ! ؟ .. من يصدق هذا ؟!.. ولكننى أحمق ..

واستلقى عند قدميها وهو يفرقع بأصابعه مع نغمة راقصة رددها الراديو . واقتنع بأن الدنيا تتمتع بصحة تحسد عليها . وخطرت له فكرة جديدة فوثب الى الأرض وهو يتساءل :

ـــ ما رأيك فى نزهة ليلية ؟ !

ومضيا الى ملهى صغير بشارع النبى دانيال . وتغلب بسهولة على حرص مأثور عنه فأنفق بسخاء ، وشربا كثيرا ، ورقصا مع كل نغمة . وفى فترة استراحة لاحظ أن شابا يرمق محبوبته باهتمام فتكدر صفوه وتوثب لمواجهة أى احتمال لا يروقه . وتقدم الشاب من دنيا وانحنى تحية ثم طلبها لرقصة مقبلة فنفخ بركات غاضبا حتى همست فى أذنه :

ـــ هذا تقليد مألوف لا ضرر منه ..

فقال بغلظة :

ـــ لا أحبه ..

ثم حدج الشاب بنظرة حمراء وقال له بخشونة :

ـــ اذهب ..

ولم يدر بماذا أجاب الشاب ولكنهما التحما فى عراك بسرعة مذهلة . ولم يشعر بما تلقى من ضربات ولكنه أصاب خصمه فى بطنه فترنح وكاد يسقط على ظهره لولا أن تلقاه النادل بين يديه . وأحدقت بهما الأعين المحمورة فى ذهول ووجوم . وتنقل مدير المحل بين الموائد مهدئا للخواطر ثم أشار الى الأوركسترا فانطلق يعزف داعيا الى رقصة جديدة . وجعل بركات يلهث

ودنيا تسوى له ربطة عنقـــه وقد انخلع زرار الجاكتة وتهتك الجانب الأيسر من أعلى القميص ، أما اللكمة التى أصـــابت صدره فلم تكن بذات بال . ورغم ذلك فلم يستأثر به الكدر أكثر من دقائق ، وسرعان ما عاوده الانسجام ، وراح يشرب كما يحلو له . ورمقه البعض بحنق فمالت دنيا على أذنه قائلة :

ـــ تذهب يا عزيزى ..

وغادرا الملهى وعشرات النظرات تصفعه بازدراء ، ولكنه شد على ذراعها بمرح وسعادة ، وداخله احساس قوى بالزهو والفخار فقال لها :

ـــ لا تغتمى يا عـــزيزتى ، هـــذه متاعب يسيرة ، وكثيرا ما تحدث ..

واستقلا ترام الرمل مع الجمهور المنصرف من اسينما . ومد ذراعيه حولها كالسياج ليدفع عنها غائلة الزحام ولكن رغم ذلك ضايقها رجل عن قصد أو عن غير قصد . ورماه بنظرة وعيد ولكن الآخر كان فى واد آخر فواصل مضايقاته . وانفجر فيه غاضبا من رأس دارت به الخمر . وتبادلا كلمات غاية فى القسوة ، ثم تبادلا لطمات ولكمات بعنف قبل أن يفصل الناس بينهما . وتدخل أولاد الحلال لمنع المضاعفات . ووجد فى وجنته اليسرى ألما ، وسال الدم من زاوية شـــفته السفلى . وجعل يجفف الدم بمنديله طيلة الطريق ولكن الدم الغزير الذى خضب شارب خصمه عند أسفل أنفه الملتهب خفف من شدة انفعاله .

وعند مغادرة الترام لفحه هواء منعش ثمل بعبير المطر فارتفعت روحه وقال :

— جرحى بسيط ولكنه خسر أنفه فيما أعتقد ..

فتمتمت فى ملق :

— كدت تقتله الله يجازيك ..

وندت عنه ضحكة ثم قص عليها نوادر من معاركه فى الزمان الأول قبل أن تشكمه الوظيفة . وكان يروى ذلك بفخار واضح ، ثم عاوده مرحه كأن شيئا لم يكن ، وهكذا رجعا الى حجرتهما . ووجد الشراب والشواء على الخوان حيث تركهما البواب فقال :

— جميل جدا ، ولكن ينقصنا الزهور ، كان يلزمنا باقة ورد ويا للأسف !

وغسلت له جرحه ودلكت وجنته وهو يغنى « ما تبطل الشقاوة وتيجى عندنا » ، وقالت له ضاحكة ان صوته لم يخلق للغناء فقال ان المهم هو السعادة فعند ذاك يغنى أى شىء . ثم تحدث ببلاغة رقيقة عن الحب حتى قال لها :

— ليس كمثله شىء ..

ثم قال أيضا بعد أن قبلها بامتنان :

— لا بد من الرجوع الى الاسكندرية ، سنلتقى كثيرا بالرغم من الرحيل ..

وعندما ساد الصمت ارتفع زئير الهواء خارج النافذة فقهقه بركات قائلا :

— جو بلادك قلّب ولكنه جو سعيد !

وعندما اختفى كل شيء فى الظلمة اشتد زئير الهواء . وأكثر من مرة نضح شيش النافذة بوميض البرق فى موجات قصيرة متتابعة كالدغدغة كشفت عن معالم الحجرة الكاسية والعارية ثم استكن الظلام كأكثف مما كان فتضاعف حنان الشاب واستمتاعه بالدفء والأمان . ووجد نفسه يتذكر جو الساحل عندما يكفهر وتنتشر فى تضاعيفه تحركات غامضة متوترة تنذر بوشيك المطر . وما لبثت الأمطار أن انهلت فوق النافذة فى عربدة صاخبة فقال لنفسه وهو يستزيد من متعـــة الأمان والهناء ان قيام الساعة نفسها يطيب فى أحضان الحب .

واستيقظا عند الضحى .

وفتح النافذة فدخل هواء بارد وتراءت السماء ملبدة بغيوم فى لون المغيب جامدة غير موحية .

وجلست هى على الكنبة فى تراخ مشعثة الشعر منتفخة العينين فاترة النظرة شبه عابسة كأنها لم تعرف اللعب . وخيل اليه أنها كبرت أعواما فسرعان ما شعر بالكبر وبأن كل شيء زائل . وتثاءبت طويلا بصـــوت كالأنين ثم قالت وكان أول ما نطقت به منذ استيقاظها :

ـــ هذا أوان الذهاب ..

فتساءل :

ـــ لم العجلة ؟

فتمتمت :

ـــ انتهت الليلة ، ولدى عمل ومواعيد !

ثم رأى حركة لم يكن يتوقعها . رآها تميل نحو التواليت ثم تفتح الدرج وتسترد الجنيهين من مكانهما ثم تعيدهما الى خقيبتها وقد تثاءبت مرة أخرى . ما معنى هذا ؟!.. وسألها فى حيرة :

ـــ أأنت فى حاجة الى نقود ؟!

ـــ كلا ، أخذت ما اتفقنا عليه فقط !

فتساءل فى دهشة وكآبة :

ـــ أى اتفاق يا عزيزتى ؟!

ـــ الاتفاق ، نسيت ؟

فضحك ضحكة بلهاء وقال :

ـــ الظاهر انك أنت التى تنسين !

ولم تعن بالرد فقال بجزع :

ـــ شيء عجيب ، النقود لا تهمنى ، ولكنك قلت أمس ... ، أنسيت حقا ؟ !

وقال لنفسه اما أننى مجنون واما أنها مجنونة . ثم قال عابسا :

ـــ مالك ؟ ، ماذا جرى ؟ ، خبرينى من فضلك ؟!

فابتسمت ابتسامة باردة وهى تتساءل :

ـــ أتريد أن تأخذ دون أن تعطى ؟

ـــ قلت انك لا تأخذين عندما ترضين !

فرمقته بنظرة غريبة ثم قالت :

ـــ أردت ان أهبك ليلة سعيدة ، هذا كل ما هنالك ..

فسألها بصوت متهدج :

ـــ مجرد حيلة من الحيل ؟!

ـــ ولكنها أسعدتك سعادة حقيقية ..

فقال وغضبه يتراكم كزوبعة فى الأفق :

ـــ كذبة حقيرة ..

ـــ لا تزعل ، كانت السعادة حقيقية ، وأنا استحق شكرك !

رماها بنظرة قاسـية لم تر من وجهها الا دمامة وحشية ، وأصغى فى رجفة الى حديث نفسه الثائرة التى تدعوه الى خنقها حتى يتفجر دمها الأسود فنظرت اليه بقلق وحذر فصاح بها :

ـــ شيطانة حقيرة ..

فلم تنزع بصرها منه متوثبة للدفاع عند أول حركة فصاح :

ـــ وحيلة فاشلة ألا تدركين ذلك ؟.. أود أن تدفعى حياتك ثمنا لها ..

فلم تنبس وازدادت حذرا فعاد يقول :

ـــ وما فائدة ذلك يامغفلة ؟، لن تستطيعى أن تكرريها مرتين.

اطمأنت الآن الى أن موجة الجنون قد انحسرت عنه فيما بدا وأنه أخذ يسترد شيئا من هدوئه الخائب وان رانت عليه كآبة ثقيلة فقالت :

ـــ لكنها حيلة لا بأس بها قبيل الرحيل ، أليس كذلك ؟

فقال بازدراء :

ـــ قلت يا مغفلة انك لن تستطيعى أن تكرريها مرتين ...

فتساءلت :

ـــ ومن قال اننا سنلتقى مرة أخرى ؟ !

حلم نصف الليل

أم عباس امرأة جميلة ، عرفت فى الحى بجمالها ، ويتطلع اليها أصحاب الأذواق كما يتطلع أهل الخلاء الى عين ماء . وهى الى ذلك تملك عمارة قديمة من أربعة أدوار غير ثلاثة دكاكين أسفلها ولذلك اعتدها الأهالى وكلهم فقراء حلماً موشى بالذهب . ويوم توفى زوجها بائع المسابح والمباسم والأوراد كانت فى حوالى الأربعين ، وهى سن يعتبرها الحى ذروة النضج ومجلى البضاضة وعطر الأنوثة . وكثيرون سعوا الى التزوج منها ، ولكن القسمة دفعت بها الى أحضان رجل لم يجر عند الظن على بال . كان حسنين يملك عربة كارو ويؤجرها الى الغير ، فى الثلاثين من عمره ، قوى الجسم ، مرهوب الجانب ، ومعدودا من فتوات الدرجة الثالثة . ولم يكن أحد فى الحى يحبه أو يعجب به فازدادوا له مقتاً ، وعجبوا كيف تقع امرأة كأم عباس فى أحابيله ، وقالوا بأسف والغضب والحسد يأكلان قلوبهم :

ــ مسكينة أم عباس ، ومسكين عباس !

وعباس ابنها من الزوج الراحل ، فى العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ، تلوح فى عينيه الواسعتين نظرة صامتة ، ولعلها ناطقة بلغة مجهولة ، يبتسم كالأطفال ، ويطلق شاربه

ولحيته ويحبهما . وهو أمىّ لم يحصّل فى الكتّاب حرفاً ولذلك فتح له أبوه دكانا من دكاكين العمارة لبيع الحلوى والفول السودانى واللب فكان يغدق على الأطفال بغير حساب . ولما تزوجت أمه من حسنين غاب عن الحى أياما ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

ـــ لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر ..

ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

ـــ يا أم عباس ... الله يسامحك ...

وعندما ينقضى النهار يخلع جلبابه ويلبس بدلة زرقاء فاتحة اللون فهو يحب الألوان الفاتحة ، ويمشط بعناية شاربه ولحيته ، ويغطى رأسه بطربوش متداعى الأركان ، ويتناول عصاه الخيزران البرتقالية ، ثم يغلق الدكان وينطلق فى سبيل طويل ، ملقيا بتحياته يمنة ويسرة ، يلوك فى فيه قطعة من السكر النبات ويبتسم فى سعادة رائعة ، وأكثر الليل يرى هائما على وجهه . ومنذ تزوجت أمه من حسنين اتخذ من دكانه مسكنا فلم تعارضه أمه طويلا لعلمها بعناده ، وكانت لا تخشى شيئا عليه وتقول ان ملائكة الله تحرسه . وسعى حسنين يوما اليه متوددا ولكنه صاح فى وجهه :

ـــ اذهب ، أنا لا أعرفك ..

فغضب الرجل قائلا :

ـــ أنا عمك ..

وحال أناس بينهما وهم يلاطفون الرجل دفاعا عن الشاب المحبوب . وحزنت أم عباس حتى دمعت عيناها الجميلتان . كانت تحب عباس لأنه وحيدها ولأن وجهه صورة من وجهها . أجل كان عباس جميلا ، ولا يخفى جماله رغم اللحية والشارب والطربوش المتداعى الذى يغطى ثلث وجهه .

ومن عجب أن حسنين ازداد بعد نعمة الزواج من أم عباس فظاظة وانحرافا . واستفحل جانب الفتونة من ذاته فاشترى الأعوان وأكثر من العدوان ، وكان يسكر حتى تلاطمه الجدران ، وكان يغنى اذا سكر بصوت تفر منه الخنافس . وكلما رأى عباس الرجل فى حال من أحوال عربدته خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

ـــ يا أم عباس ... الله يسامحك ...

ويوما ترامت حشرجة نبراته الصارخة من وراء الشيش الى الطريق فى هياج وحشى :

ـــ أنا سيد البيت ... أنا سيد الكل ..

وتخيل الناس المرأة الجميلة تحت زوبعة الاهانات بأسف ، المرأة التى لم تعرف فى ماضيها سوى الحب والتكريم . وتساءلوا عن سر ذلك الغضب . وأجاب سكان العمارة بأن الايراد هو سر الغضب ، وأن الفتوة انتصر ، وأصبح المحصل الوحيد للايجار ! . ولم تعد أم عباس تخرج كعادتها لزيارة الجارات والتجول فى التربيعة . لم يعد أحد يراها وهى تتبختر فى الملاءة

اللف كالمحمل وعيناها المكحولتان ترنوان بنظرة دسمة حول عروس البرقع .

ولم يقنع حسنين باغتصاب دخل الأم فمضى يوما الى دكان عباس وهتف وهـو يترنح من السكر حتى طيّر الأطفـال عن ملعبهم :

ــ دلنى على مليم واحد ورثته عن أبيك ؟

وتعلقت عينا عباس بالأطفـال وكأنه لا يرى الرجل الآخر ، فأنذره هذا بسبابته صائحا :

ــ ادفع الايجار أو فلتخل الدكان ..

وسارع اليه بيومى اللبان ليهدىء من ثائرته ، وتودد اليه بمعسول الألفاظ حتى مضى به بعيدا وحسنين يقول بلسان ملتو ونثار ريقه يرش وجه بيومى رشا :

ــ معتوه وبلطجى .. !

وعند المساء انطلق عباس الى جولته الليلية ، يجود حيثما ذهب ببسمات رائقة وتحيات حارة فى سعادة ملائكية . ودبر حسنين حملة ارهابية جديدة ليحمل أم عباس على أن تبيع له العمارة بيعا صوريا . واشتد الخـلاف بينهما فضجت الحارة بصراخه وتهديداته . وشكت المرأة الى الجارات كربها . وتشاور بعض الطيبين فى السعى لدى حسنين ليعدل عن مطالبه ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اتخاذ خطوة ايجابية خوفا من بطش الرجل وبخاصة أنه اعتدى فى ذلك الوقت اعتداء وحشيا على رجل يدعى « كرملة » عندما ضبطه يوسل نقودا من أم عباس

الى ابنها . وارتفع نحيب المرأة ذات ليلة عقب تعنيف شديد من الرجل ثم علم أهل الحى أنه ضربها ضربا شديدا وأنها لن تطول مقاومتها .

وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا . واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ وهـرع كثيرون الى مصـدر الصراخ ، الى القبو . وعلى ضوء فانوس رأوا بيومى اللبان وهو واقف يرتجف . هو أول من يستيقظ فى الحى ليسرح بصفيحة اللبن ولكن ماذا دهاه ؟. ووجدوه يشير الى مكان فى الأرض فنظروا حيث يشير فرأوا حسنين سابحا فى دمه وقد تكومت جثته أسفل جدار القبو .

واضطرب الحى اضطرابة عنيفة ، وسرعان ما احتلته الشرطة والنيابة ثم اندفع التحقيق فى جميع الجهات متعقبا كافة الشبهات . استدعى كرملله وهو آخر ضحية للقتيل ، وأم عباس ، وبعض سكان العمارة ، وبيومى اللبان نفسه ، وعشرات وعشرات من خصوم الرجل الذين لا يحصيهم عد ، ولكن ثبتت براءتهم جميعا بصورة قاطعة . حتى عباس استدعوه للتحقيق ، ولما سئل عن المكان الذى كان فيه وقت ارتكاب الجريمة أجاب ببساطة :

ـــ كنت مع الخضر ..

ولمـا أراد المحقق أن يعرف من هو الخضر أجاب عباس بدهشة :

ـــ ألا تعرف سيدنا الخضر ؟!

ولكن كثيرين كانوا يعرفون تجوال عباس خطوة فخطوة

وقد شـــهدوا نيابة عنه ، وهكذا بدت الجريمة لغزا لا يريد أن يحل . وعرف من التحقيق أن حسنين قتل بآلة حادة هشـــت مؤخر رأسه . والحق أن أحدا لم يأسف عليه ، ولكنهم تساءلوا كثيرا عن القاتل ، وظلت الجريمة حكاية الحارة المثيرة زمنا طويلا ..

وظن أول الأمر أن عباس سيرجع الى مسكن أمه ولكنه رفض ذلك بإباء . واعتصرت المحنة الأم فغرقت فى الحزن ولكن جمالها قاوم المأساة وخرج منها فى النهاية متألقا كماضيه . وعادت تتبختر بين السكة الجديدة والتربيعة وعاد الاعجاب يحوطها كالهالة .

واذا برجل يتقدم طالباً يدها . كان فى الحقيقة شابا دون الثلاثين ، قصاباً أقـــرب ما يكون الى الفقـــر ومن أهل الحى المجاور ، جميل الصورة ، دمث الأخلاق ، نظيف الذمة . وتساءل الناس هل تجازف المرأة بقبول التجربة مرة أخرى ؟ . وقبلته المرأة بأسرع مما تخيل أحد . ومع أن بعض الطيبين قالوا ان الله قد عوضها خيرا الا أن كثيرين تهامسوا متسائلين : ترى ألهذا الرجل علاقة بالجريمة الغامضة ؟! ، أما عباس فقال كعادته :

ــ لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر .

وخرج الى وسط الطريق ثم رفع رأسه الى عش العروسين صائحا :

ــ يا أم عباس ... الله يسامحك !

وبلغ التهامس المريب مسامع الحكومة فأجرت تحرياتها عن العريس ــ وكان يدعى عبده ــ واستدعى لسؤاله هو وأم عباس



... خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن
امه وصاح بأعلى صوته : يا أم عباس ... الله يسامحك ...

ولكن لم يثبت عليهما شيء وظل اللغز أخرس كما كان . وتجلت بالمعاشرة مزايا عبده القيمة فقد وهب المرأة حبا وعطفا ومعاملة كريمة . وعرض من بادىء الأمر صداقته على عباس ومع أن الشاب نهره قائلا :

ــ دعنى وشأنى ..

الا أنه حباه بعطفه ورعايته وحث أمه على مده بما هو فى حاجة اليه من نقود . وأثبت فى الوقت نفسه أنه ذو عقل راجح فقد اقترح على أم عباس أن تبيع حوشا خلفيا للعمارة قائما على ناصيتين لتجدد العمارة بثمنه وتبنى دورا جديدا . وأولته المرأة الثقة التى يستحقها فتجددت العمارة وارتفعت وازداد دخل أم عباس زيادة محسوسة حتى أعجب به الناس وقالوا رجل ولا كل الرجال . وقال بيومى اللبان لعباس وهذا يتناول عشاءه فى دكانه قبل الانطلاق الى جولته الليلية :

ــ أنت لك قلب ملاك فكيف تنفــر من رجل طيب كعم عبده ؟

فمضى عباس فى تناول الزبادى كأنه غير المقصود بالكلام فتساءل بيومى :

ــ ألا تحب من يحب الناس ويعمر الخرابات ؟

وأعاد عباس سلطانية الزبادى فارغة ثم نظر فى عينى بيومى قائلا :

ــ الوحش !... ألم تره وهو يقطع اللحم فى دكانه ؟!

ووضح فيما تلا ذلك من زمن أن عبده بار كذلك بأهله

فكان كلما خلت شقة فى العمارة أسكنها أحد أقاربه . وكان يخفض الايجار للفقراء منهم باذن من زوجته . وفى ذلك كله لم يجد أحد ما يؤاخذه عليه حتى جاء بأمه وأختين له ليقمن معه فى شقته فعند ذاك ردد البعض المثل القائل : « ان كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله » . والحق أن أم عباس لم ترتح لذلك ، وهى قد فوجئت بالأمر الواقع مفاجأة لم تستطع معها منعه ولكنها أدركت أن الزمام قد أفلت من يديها وأنها لم تعد سيدة بيتها بحال بعد أن اضطلعت حماتها بالمسئولية فشعرت بالضياع .

واذا به يوما يخلي دكانين من دكاكين العمارة الثلاثة ويهدم الجدار القائم بينهما ليقيم منهما دكانا كبيرا فخما ، ثم انتقل اليه من محله الصغير بالحى المجاور ، وعلقت الخراف والعجول ، وصار أكبر قصاب فى الحى كله . وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مقرىء حسن الصوت وحمد عبده الله بصوت سمعه الكثيرون على ما فتح به عليه من مال حلال !

ولأول مرة اختلف الناس فيه فمن قائل انه مثال للأمانة والبر ومن قائل انه حسنين آخر حريرى الملمس . وشك أناس فى ذمته وعض الحسد قلوب الكثيرين . وتغير عبده بعض الشىء فاختفت نظرته الوديعة وحلت محلها نظرة جديدة مليئة بالثقة ، وطعّم دماثته المألوفة بقدر من الحزم والعزم اقتضاهما مركزه المالى ومسئوليته كرجل أعمال . ولم يكتف باستعمال حزمه وعزمه فى التجارة فاستعملهما فى البيت أيضا كلما نشب نزاع بين أم عباس وأهله ، واستعملهما خاصة مع أم عباس . ولما

كانت المرأة لم تعهــده الا لطيفا مؤانسا فقد كبر الأمر عليها وحزنت حزنا شديدا . وساءت الحال بينها وبين أهله ، وأصرت على استرداد ما ضاع من حقوقها فى بيتها ، حتى قالت له يوما :

ــ أنا لا أريد أن يشاركنى أحد فى بيتى ..

واذا بالرجل يقول لها بصوت رهيب :

ــ لك ما تشائين فتفضلى بالذهاب .. !

ولم تصدق المرأة أذنيها . ثم صاحت :

ــ هذا بيتى .. وعلى الآخرين أن يتركوه ..

ووقع اشتباك بالأيدى بين النساء فهاله أن يُعتدى على أمه ، وانهال على أم عبــاس ضربا ، ثم دفعها خارج البيت . وجدت نفسها وحيدة فى الطريق حتى آوتها أسرة فقيرة تمت بقربى بعيدة الى زوجها الأول . وهز الحادث النفوس هزاً . وهرع عباس الى ما تحت مأواها الجديد وصاح بأعلى صوته :

ــ يا أم عباس ... الله يسامحك ..

ولم يدر الجيران ماذا يفعلون ، فلم يكن من اليسير اغضاب الرجل بعد أن كبر نفوذه وتعلقت به مصالح الكثيرين . وفكر البعض فى رفع الخــلاف الى ساحة القضــاء ولكنهم كانوا يتهامسون بذلك سرا خوفا على أنفسهم . ولم يجهر بالسخرية منه الا عباس حتى غضب عليه الرجل فسنع عنه مصروفه وهو يقول بأعلى صوته :

ــ عبث السفهاء لا يجوز أن يمتد الى المال ..

والتفت الى كثيرين من أهل الحى الذين وقفوا يشاهدون النزاع وقال لهم :

ـ أى واحد منكم أحق بالنقود التى يعبث بها هذا الغلام المعتوه ..

ولـكنهم كانوا يرمقـون الدكان والخـراف والعجـول ويتساءلون : وهذه الأموال ما شأنها ؟ ! ، أما عباس فلم يكترث لشىء وبدا كأنما يزداد سعادة وسيادة ، وكان ينطلق فى الليل كأنه وارث الملكوت . وقال الناس ان أم عباس امـرأة تعيسة الحظ وان قلبها الضعيف يدفعها دائما الى المهالك . وبينما كانت تعيش بفضل احسان أسرة فقيرة كان عبده يتضخم ويشارك فى كل نشاط مالى فى الحى . وسعى بالصلح بينهما أناس طيبون حتى أعادوا المـرأة الى بيتها ، ولكنها عادت منكسرة النفس لا أمل لها فى حياة كريمة . ولم يسمح عبده باعادة مصروف عباس اليه الا بشرط أن يشاركه فى دكانه أحد أقربائه هو ليصون المال ويدير العمل . وأحب عبده الحياة المريحة المترفة فعقد اللاسة الشاهى الفاخرة فوق رأسه وتلفع بالعباءة من وبر الجمل ولبس المركوب الملون من خان الخليلى وتحلى بالخـواتم الذهبية ، وسبقته رائحة المسك حيث ذهب فيقوم له الناس على الجانبين حتى يختفى عن الأعين فيتهامسوا :

ـ الله يرحم أيام زمان .. !

وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا . واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ ، ثم هـرع الجميع الى القبو .

رأوا بيومى اللبان وهو يرتجف فنظروا الى حيث يشير فرأوا المعلم عبده مكوماً ورأسه غائص فى بركة من الدم . وزلزل الحى زلزالا عنيفا . وأطبقت عليه الشرطة والنيابة والمخبرون . واستدعى الى التحقيق عدد لا حصر له من أهل الحى ، ولكن لم يقع على أحـــدهم ظل شبهة من قريب أو بعيـــد ، وتعاضت الدلائل بأن جريمة عبـــده ستلحق بجريمة حســـنين . وقال أناس وهم يضربون كفا بكف :

ـــ ما أعجب هذا ..

فقال آخرون :

ـــ انتظروا حتى يظهر العريس الجديد ..

ومضى عباس الى دكان بيومى ليتناول عشاءه المعتاد قبل الانطلاق لجولته الليلية . وجعل بيومى يرمقه بغرابة وهو يناول الزبادى بأناة وســـعادة ، وشاربه ولحيته يلتقيـــان حول فيه ويبتعدان فى حركات متتابعة . وتردد بيومى قليلا ثم قال :

ـــ عباس ! .. أنت أعجب شيء فى حارتنا ..

فابتسم عباس اليه بمودة اذ كان أحب الناس الى قلبه ، فقال الآخر فيما يشبه الهمس :

ـــ كان عبده ما زال حيا عندما عثرت عليه فى القبو ..

فتحسس عباس شاربه عند امتداده فوق فيه ليتأكد من جفافه ، فقال بيومى :

ـــ وقد نطق باسم قاتله قبل أن تصعد روحه ..

فملأ عباس الملعقة بالزبادى ورفعها الى فيه وهو يركز فيها عينيه ، فقال بيومى :

ــ وهو بلا شك قاتل حسنين من قبل ..

لاح فى وجه عباس عناء من يستحضر خيالا لا يرام ، فقال بيومى :

ــ وعند التحقيق نسيت كل شىء ، وتلك ارادة الله !

أتى عباس على آخر ما فى السلطانية وتأهب لمغادرة الدكان فتساءل بيومى :

ــ من أنت يا عباس ؟ ! ... وماذا يقول لك سيدنا الخضر كل ليلة ؟ !

قوس قزح

اجتمعت الأسرة على هيئة مجلس للشورى . ذلك تقليد جميل متبع من زمن بعيد بفضل حكمة الوالدين : حسن دهمان وهو من رجال التربية وعلم النفس والسيدة نظيرة وهى مفتشة كبيرة بوزارة الشئون ، والغرض منه تربوى لاشراك الأبناء فى تحمل المسئولية وتفهم الحياة فضـــلا عن أنه يجعل من العقل المحرك الأول لسلوكهم . وقالت الأم :

ـ نحن نجتمع لمناقشة مسألة « طاهر » ..

وطاهر هو الابن الأصغر ، فى المرحلة الثانوية ، يحب ابنة زميل لأبيه تقاربه فى السن ، ولما كانت أسرة الفتاة على وشك الانتقال الى بلد عربى لعدة سنوات فقد أراد طاهر أن يخطب البنت قبل السفر . وقال سمير وهو أكبر الأبناء وطالب بكلية الهندسة :

ـ أعتقد أن الخطبة بالنسبة لطاهر سابقة لأوانها ..

وقالت هدى وهى طالبة بكلية الحقوق :

ـ طاهر متقلب فى عواطفه ، رأيى التريث ..

والتفت حسن دهمان بوجهه الجاد نحو طاهر وقال :

ــ أود أن أسمع رأيك .. ؟

وبوجه متجهم ، وهو يركز بصره فى تهاويل السجادة تجنبا لالتقاء الأعين ، قال طاهر :

ــ ما فائدة الكلام ما دام أن العقل سينتصر فى النهاية ؟!

وطال الأخذ والرد ، ثم أخذت الأصوات ، وانتصر العقل كما تنبأ طاهر ، وقال الأب معلقا على النتيجة الحكيمة :

ــ هذا هو عين العقل ..

هــذه الجملة اكليشيه يختم به الرجل مناقشاته وتقريراته الموفقة . ومنها يقف طاهــر موقفا غير ودى اذ أنه طالما عانى المتاعب باسم العقل . ولكن العقل يلعب دورا خطيرا فى حياة الأسرة كأنه معبود . بفضل توجيهه ساد الأسرة نظام عجيب فهى ساعة دقيقة . البيت آية فى الترتيب والأناقة كأنه وجه ذو ملامح أبدية . سقوط عود كبريت أو تزحزح مقعد عن موضعه أو ارتفاع فى درجة صوت الراديو عن الحد المرسوم يعد من الحوادث المزعجة التى تتطلب عــلاجا سريعا . أوقات الطعام والاستيقاظ والنوم والعمل والراحة تخضع لدقة فلكية ، ويقول حسن دهمان عن ذلك كله :

ــ هذا هو عين العقل ..

ولكل فرد فى الأسرة دفتر توفير ، ونوع من الكتب يلائمه ، وحتى الأغانى والبرامج الاذاعية والتليفزيونية تتقرر بعد تشاور ونقاش ، ولدى مواجهة أى مسألة هامة ينعقد مجلس الأسرة ويدلى كل برأيه ، ويفحص هذا الرأى بكل عناية ودقة سواء

تعلق بنوع الدراسة أم الحب أم الصداقة أم السياسة ، أجل لا يفلت من هـــذا النظام شيء ، ثم يقول حسن دهمان بكل ارتياح :

ــ هذا هو عين العقل ..

وعقارب الساعة آيات فى الدقة الا العقرب الصغير فهو مصدر قلق لوالديه .

ــ ألا تخجل من نفسك يا طاهر ؟

لكنه ينظر بغرابة الى ما حوله . لا يريد أن يتحمس لشيء . ويحضر مجلس الأسرة وهو كاره . ويتحفز للمعارضة بسبب وبلا سبب . نشاز فى أوركسترا العائلة . ويغالب ضحكة مريرة فى أحايين كثيرة . وبلغ به الاســـتهتار مرة أن اقتحم المطبخ وتناول غداءه قبـــل موعده المحدد بنصف ســـاعة . وقال له والده :

ــ ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بنى .. ؟

ولما لم يجد منه استجابة من أى نوع سأله :

ــ ألا زلت تفكر فى الخطبة ؟

فأجاب ببساطة :

ــ كلا ، الجوع هذه المرة لا الحب .. !

ولما ذهب همست لظيرة هانم فى أذن زوجها :

ــ آخر العنقود يا عزيزى ..

فتساءل الرجل مغضبا :

ــ هل نرضي بالهزيمة ؟

ـ كلا ، ولكن الأمر يتطلب عناية مضاعفة ..

وآمن طاهر بأن « هــذا هو عين العقل » تطارده حيث ذهب . أنها تطوقه فى الظاهر والباطن . أنه غريق فى نسيجها المحكم . حتى الحب والطرب والحزن . وسمع لجريان الدم فى أطرافه صوتا فأيقن أن شيئا سيحدث . وشاركه احساسه من يعيشون حوله ولكن فى صمت متبادل . ويوما وهو فى الفراندا المطلة على الحديقة الصغيرة حدث شيء . كان موسم الامتحانات يقترب وسمير وهدى مكبان على المذاكرة . وكان الأب يكتب بحثا والأم تقرأ مجلة أمريكية . وبكى طاهر . كان فى الفراندا يذاكر . وشعر بأن الحمل فاق احتماله وأن الدنيا لا شيء . وترك الكتاب فوق الترابيزة وراح ينظر فى لا شيء . وحــزن حزنا عميقا . ثم انصــهرت الكآبة فذابت دموعا . وكتم البكاء أول الأمر أن يسمعه أحد . ثم تدافعت الدموع بغزارة مذهلة فنشج ثم نحب . وغلبه ذلك فاستسلم للنحيب حتى هرع اليه الجميع . وقفوا مبهوتين . وجاءت أمه بماء فغسلت وجهه . وظل يبكى بحركات بلا صوت وبلا دموع . وأسند رأسه الى صدر أمه فتلقته بحنــان وهى تتســاءل بقلق ترى هل جاوزت الحــد « المعقول » فى اظهار الحنان الذى يعتمل فى صدرها ؟ . ثم هدأ طاهر تماما فجلس واجما ولم يبق من الانفعال الغريب الا نظرة حزينة بكل معنى الكلمة . وساد الصمت وارتسمت الأسئلة فى الأعين القلقة . وسألته الأم :

ـ مالك يا طاهر ؟



وقال له والده : ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بنيّ . . ؟

أجاب دون أن ينظر الى أحد :

ـــ لا شيء ..

ارتسمت الدهشة والاحتجاج مكان الأسئلة ، وقال له سمير :

ـــ خبرنا عما يحزنك .. ؟

وقالت هدى بحرارة :

ـــ يجب أن نعرف ذلك ..

ولكن الأب أشار اليهما بالخروج فخرجا ثم سأله برقة :

ـــ ماذا بك يا بنى ؟

ـــ قلت لا شيء .. !

ـــ أيام الامتحانات أيام مرهقة للأعصاب .. ؟

ـــ كلا .. كل شيء طيب ..

وغادر الرجل الحجرة ليمنح الأم فرصة أطيب ولكن طاهر لم يقل شيئا . ولم يكن يعرف أكثر مما قال ، ولذلك لم يستخلص أحد منه جديدا لا فى تلك الليلة ولا فى الأيام التالية . ونصحه والده بالتريض فى الشوارع المحيطة بمسكنهم ساعة كل يوم قبل أن يجلس للمذاكرة . واعتبر الحادث عرضا من أعراض الارهاق العصبى ، ولم يعد أحد يذكره ، ثم نسوه تماما .

ويوما قال حسن دهمان باهتمام :

ـــ دعوت مديرنا الجديد الى سهرة لطيفة فى حديقتنا الصغيرة ..

وخاطبت الأم الأبناء قائلة :

ـــ يجب أن نظهر بالمظهر اللائق وأن تمكثوا معنا قليلا ثم تنصرفوا للمذاكرة ، وسيتوقف على لباقتكم نجاح الحفلة ..

وتساءل طاهر :

ـــ أهو صديقك يا بابا ؟

فتفكر الرجل مليا ثم قال :

ـــ الصداقة نعمة كبيرة وعلينا أن نستزيد منها كلما وسعنا ذلك ، والمدير اليوم مجرد زميـــل أكبر ولكنه سيكون غدا صديقا ، والحياة الاجتماعية تطالبنا بواجبات نافعة لابد منها ..

وقال طاهر لنفسه : « هذا هو عين العقل » . وكان المدير الجديد قصيرا بدينا ضخم الوجه والرأس أصلع ويتكلم ببطء شديد . وأنعم طاهـــر فيه النظر وهو يقاوم رغبـــة شريرة فى الضحك . وأعجبه منظر أمه وهدى وهما فى كامل زينتهما وتابع أحاديث أسرته الطلية بدهشة . وسمع والده يستشهد بالشعر أكثر من مرة وسمع أمه وهى تعلق على شكوى المدير من كثرة نسيانه قائلة :

ـــ تلك آية العبقرية يا سعادة البيه ..

وانسحب سمير وهدى فى الوقت المناسب ولكن طاهر لم يبرح مجلسه ، ورغم اشارات أمه الخفية لم يبرح مجلسه ، ولما لاحظ أبوه تطلعه الى المدير قال له :

ـــ آن لك أن تذهب يا طاهر ..

فتساءل طاهر :

ــ ألا أقول شعرا يا بابا ؟

وقطب الأب على حين سأله المدير :

ــ أأنت شاعر ؟

ــ كلا ولكنى أحفظ الشعر ..

ــ اذن أسمعنى لأعرف ذوقك ..

فقال طاهر بانتصار :

ــ علو فى الحياة وفى الممات ..

ــ شعر مشهور ..

ــ قيل لمناسبة شنق رجل !

فضحك المدير قائلا :

ــ شعر جميل أما المناسبة فسيئة جدا !

عند ذاك ضحك طاهر . شعر بأن الحمل فاق احتماله وأن الدنيا لا شىء . وراح ينظر فى لا شىء . وحزن حزنا عميقا . ثم انفجر ضاحكا . وبادره أبوه فأخذه من يده ومضى به خارجا . وعند نهاية السهرة ناقش الوالدان مشكلة طاهر طويلا فاتفق رأياهما على أنها بحاجة الى علاج حقيقى ، ولكنهما رأيا أن الأوفق تأجيل ذلك الى ما بعد الامتحان .

ويوما ارتفع صوت هدى فى البيت وهى تنادى فى شبه استغاثة صائحة « ماما .. تعالى انظرى ماذا فعل طاهر ! » . وهرع الى حجرة الشاب كل من سمع النداء . رأوا الحجرة فى أغرب منظر . منظر لا يخطر على بال انسان .. حشية السرير قد

طرحت فوق المكتب . والكتب والأوراق قد صفت فوق خشب السرير . والصوان انعكس وضعه فالتصق بابه بالجدار . وقلبت المقاعد على ظهـــورها . وطويت السجادة الصـــغيرة ثم علقت بدوبارة بسلك المصباح الكهربائى . وندت عن الأم صرخة رثاء وهتف الأب :

ـــ كارثة .. كارثة وربى !

وسألوه جميعا عما فعل ، وكان يقف وسط الحجرة هادئا وباسما فلم يزد عن أن تساءل بدوره :

ـــ ولم لا ؟

وصاحت الأم :

ـــ أنت تمزق قلبى ..

فقال برقة :

ـــ آسف على ازعاجكم ..

فقال الأب بحسرة :

ـــ غير معقول .. غير معقول ..

ـــ لم لا يا بابا ؟ ! ، كنت أقوم بتجربة ، ولو أمهلتمونى لكان ذلك عين العقل ...

وغادر الحجرة الى الفراندا . وتبعه والده فوجده واقفا ينظر الى السماء باهتمام بالغ . ونظر الرجل حيث ينظر فلم ير شيئا فازداد انقباضا ثم سأله برقة :

ـــ أتعبت رقبتك ، لم تنظر هكذا الى السماء ؟

وأهمله طاهر حتى كرر سؤاله مرتين ، ثم قال بضجر :

ـــ انى أحسدها على ما تنعم به من حرية !

فقال الأب محذرا :

ـــ لكنها مســتقر أدق نظام فى الوجــود ، النظام الذى لا يخطىء ..

فانزعج طاهر وخفض عينيه غاضبا ..

ـــ ألا تحب النظام يا طاهر ؟

فقال بحدة :

ـــ لا أحب لشىء أن يتكرر مرتين ..!

ـــ لكنها الفوضى يا بنى .. !

فهتف الشاب :

ـــ ما أجمل هذا !

وتشاور الوالدان فأجمعا على وجوب البدء فى العلاج دون ابطاء ولو ضاع العام الدراسى . واتفقا على أن يستشيرا طبيبا باطنيا أول الأمر ، على أن يذهبا بعد ذلك الى طبيب أعصاب ان نصح الباطنى بذلك ، ثم الى طبيب نفسانى ان لزم الحال .

وكان الوالدان فى الحـديقة يستقبلان بعض الضيوف ، وسمير وهدى يذاكران ، عندما سمع الجميع ضجة فى الطريق وتدافع أقدام فى الداخل وصراخ الخادمين .

وتبين أن النار مشتعلة فى الطابق العلوى . وانطلقوا جميعا الى الطريق وأحد الخادمين يحمل طاهر بين يديه . وجاءت المطافىء فأخمدت النار قبل أن تستفحل . وقال طاهر فى التحقيق ببساطة مذهلة :

ـــ نعم ، أنا الذى سكبت البترول وأشعلت النيران ..

ولما سئل عن السبب أجاب بالبساطة نفسها :

ـ لا أتذكر ..

ثم لاذ بالصمت .

وانطلقت سـيارة المستشفى . جلس طاهـر مقيد اليدين والقدمين بين والديه على حين جلس أمامهم مندوب المستشفى . استسلم طاهر بعد مقاومة غير مجدية . ونظرة متجمدة حلت فى عينى الأب أما الأم فقد انهمرت دموعها بلا توقف . وقال مندوب المستشفى :

ـ كم رأينا من حالات أشد من هذه ثم عاد أصحابها كأعقل ما يكون ..

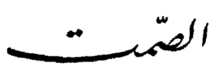
وأراد الأب أن يقول : « ان ذهاب العقل كارثة لا تعادلها كارثة » ولكنه لم ينبس . وساءل نفسه : « ما معنى هذا ؟ .. وهل ثمة خطأ ؟ » . كان بيته ـ وما زال ـ معبدا للعقل وللنظام فكيف تسلل اليه الفساد ؟. وحز الألم فى نفسه حتى تتابعت تأوهاته الباطنية وحتى حسد زوجته على سخاء عينيها . ولحظ الابن العزيز بطرف عينه فرآه قد أغمض عينيه فعض على شفته .

وتطوع المندوب للتخفيف من كآبة الجو فقال :

ـ المستشفى خير مكان له فلا تحزنا لذلك الاجراء الذى لابد منه ..

ولم تكن لدى حسن دهمان رغبة فى الكلام ولكنه أراد أن يجامل الرجل بقدر ما يستطيع فتمتم وهو من الحزن فى غاية :

ـ صدقت يا سيدى ، هذا هو عين العقل ..


الصّمت

ما أفظع هذه الحجرة . كميدان قتال . لا ترى العين فى آى موضع منها الا سلاحا يقشعر منه البدن . وهو لا يعرف الا المقص ولكن المعرض حافل بما يشبه السكاكين والخناجر والدبابيس من كافة الأشكال والأحجام . وثمة أوعية ملوثة بالدم تحت الموائد المعدنية ، وقطن وشاش ، ورائحة أثيرية نافذة كنذير من عالم مجهول ، وثلاثة أطباء ، الطبيب المولد وطبيب القلب وطبيب التخدير ، وممرضة بدينة لكنها فى خفة النحلة ولا تمسك عن الحركة . لم ير الأشياء الا خطفا على حين تركزت عيناه فوق السرير المرتفع حيث ترقد زوجته مطحونة بالصراع ، مرفوعة الساقين فوق حاجز قائم فى نهاية السرير وقف وراءه المولد فى معطفه الأبيض ، لا يبدو منه الا نصفه ، ويشى أعلى ذراعه بحركة يده المختفية . وراحت زوجته تقلب رأسها يمنة ويسرة كاشفة كل مرة عن عارض من وجهها المتقبض من الألم ، الذى استقرت فى صفحته زرقة مغبرة . آه .. حتام يطول الصراع ؟ ، متى يجود بالراحة الرحمن ؟ . ويد الطبيب لا تكف عن الحركة ، وهو ينظر نحوه أكثر الوقت ، فى بساطة واستهانة ، ويبتسم ، ولا ينقطع عن الكلام ..

ــ ما أعظم الفارق بين صورتك الحقيقية وصورتك على الشاشة !

هز رأسه وهو ينتزع من شفتيه الجافتين ابتسامة مجاملة ، واضطر فى ذات الوقت أن ينزع عينيه من الوجه المعذب ليبادل الطبيب نظرة بنظرة على سبيل المجاملة أيضا .

ــ ما أبدع الفن ! ، وفن التمثيل الذى هو سيد الفنون فى نظرى ! ، انك تضحكنى من أعماق قلبى ، لا أحـــد يضحكنى هكذا ولا الأمريكيون أنفســهم ، ودور الباشكاتب فى فيلمك الأخير دور عجيب حقا ، تفوقت فيه على نفسك !

لاحت فى عينى الطبيبين الآخــرين ابتسامة ، واســترقت الممرضة اليه نظرة باسمة كذلك ، تحية لدور الباشكاتب . ونظر الأستاذ صقر نحو زوجته على أمل أن يكون الحديث قد لطف من كربها ولكنه وجدها غارقة فى دنياها الخفية فساءل نفسه متى ينتهى عذابها ؟ ، ومتى يرحمه الطبيب فيتركه لنفسه ؟ . واذا بالطبيب يخاطبها قائلا :

ــ ساعدينى ! ، يجب أن تساعدينى كما قلت لك مرارا ، شدى حيلك وأرينى شطارتك !

وهمست بصوت هو الأنين :

ــ لاقوة لدى ..

ـ بل لديك قوة عظيمة ، ولن تتم الولادة الا بمساعدتك ، افهمى ذلك جيدا ، أنا فى انتظار صوتك !

استجمعت قواها الخائرة . تتابع الصراخ فى قوة لا بأس بها



... ونظر الأستاذ صقر نحو وجه زوجته على أمل أن يكون
الحديث قد لطف من كربها ولكنه وجدها غارقة فى دنياها الخفية

ولكنه سرعان ما وهن فتقهقر الى أنين مبحوح . وزادت يد الطبيب حركة . وعاد يقول :

ــ والفيلم فى جملته ممتاز أيضا ، قرأت مرة فى مجلة أنك تشترط قبل التعاقد على دور أن تطلع على السيناريو .. ؟

انتزع عينيه من زوجته مرة أخرى وقال :

ــ نعم ..

ــ لكن ما معنى السيناريو ؟

يا للعذاب !

ــ هو اعداد القصة للسينما ..

ــ أنا أقرك على موقفك ، يجب أن تقرأ السيناريو أولا حتى تضمن لموهبتك فيلما يناسبها ..

ــ شكرا .. شكرا ..

وتأوهت المرأة تأوهات متقطعة فقال الطبيب معاتبا :

ــ لا .. لا .. ، ليس هذا ما أريد ، الست هى التى تولد نفسها !

ومال الأستاذ صقر فوق أذنها هامسا :

ــ شيئا من التعب يا عزيزتى كى يجىء ربنا بالفرج !

فقال الدكتور ضاحكا :

ــ أطيعى كلام هذا الرجل المسئول ! .. (ثم ملتفتا نحوه) لم أعرف أنها كانت زميلة لك فى المسرح الا عن طريق احدى المجلات أما أنا فلم أرك فى المسرح ولم أرها كذلك لأننى لست من رواد المسرح ..

ثم بعد هنيهة صمت :

ــ أنت لست معى !

فانتبه صقر قائلا وقد تكاثف عذابه :

ــ معك يا دكتور !

ــ خبرنى ما أحب أدوارك اليك ؟

رباه انها لا تجد قوة للطلق ، ولكن ينبغى أن يكون الخطر بعيدا والا ما استرسل الدكتور الذى لا يرحم فى استجوابه :

ــ ماذا قلت ! ، أحب الأدوار اليك ؟

ــ لعله دور العسكرى !

ــ تعنى فيلم حريقة بلا نار ؟ .. لا .. لا ..

وانفجر صراخ من الأعماق ، تصاعد حارا مليئا كأنما يقذف بفتات الصدر والحلق . واستحثها الطبيب على المزيد وهو يتركز فى حركة يده الآخــذة فى السرعة . وأعقب ذلك تأوه عريض مرتفع ما لبث أن هبط الى درجة الأنين ثم انداح فى الصمت . ونقل صقر بصره من الوجه الأزرق المغبر الى الساقين الى وجه الطبيب وتساءل ترى أهو الختام المريح ؟؟ . واقترب طبيب القلب فجس النبض أما المولد فتراجع خطوة ثم خلع معطفه والقفاز ودار حول السرير حتى وقف أمامه باسما . همس صقر :

ــ الحمد لله ؟

ــ الحمد لله دائما .. تعال ..

ومضى الى حجرة داخلية فتبعه ، وهناك قال الطبيب :

ـــ ضاعت الجولة هباء ، ولن يعاودها الطلق قبـــل أربع ساعات على الأقل ..

ثم وهو يهز رأسه :

ـــ واذا لم تتيسر الولادة بحال طبيعية فلا بد من جراحة ..

ـــ جراحة !

ـــ لم لا ؟ ، القلب سليم ، وليس بها أمراض ، ألم أنصحك آخر مرة بتجنب الحمل ؟ !

بهت صقر . ومضى الى الصالون فجلس بين أعضاء الأسرة التى تلقت الخبر بانزعاج حقيقى . وذهبوا الى حجرة الزوجة فوجدوها تغط فى نوم عميق فعادوا الى مجلسهم . وضاق صقر بالجلسة وشعر بحاجة ملحة الى الحركة . استقل سيارته الدودج الى قهوة الشمس ، قهوة الزملاء ، وان لم يأمل فى العثور على أحدهم فى تلك الساعة من الصباح . وعند مدخل القهوة ناداه صـــوت قوى فمضى الى صاحبه وجلس الى جانبـــه فى الممر المكشوف تحت سماء مجللة بسحب الخريف . تربع جميل الزيادى فى مجلسه تحوطه هالة من الفخامة مصدرها بداته المتناسقة ، وهو زميل قديم لصقر من عهد المدرسة الابتدائية ، أما اليوم فهو من الأعيان وعشاق المسرح . وكان صقر فى حاجة حقيقية الى المشاركة الوجدانية فقال :

ـــ اطلب لى فنجال قهوة فانى فى حالة اغماء !

فطلب له القهوة وهو يتساءل :

ـــ مالك كفى الله الشر ؟

وأعاد على مسمعه ما قال الطبيب فلم يبد عليه أنه اهتز أقل اهتزاز لكلمة « الجراحة » وقال ببساطة :

ــ سليمة باذن الله ، النساء يلدن من عهد حواء فلا تخف ..

ــ المسكينة تتــألم بدرجة فظيعة ، ويقولون ان الجراحة خطيرة ..

فتناول الرجل شوية فول سودانى من طبق فنجال ممتلىء وهو يدعوه الى مشاركته ثم قال :

ــ اشاعات يروجها الأطباء ليبرروا مطالبهم ، المطالب هى الخطيرة حقا ..

وضحك لذكرى وردت للمناسبة وقال قبل أن يفتح صقر فاه :

ــ عند مولد ابنى اسماعيل أتعلم ماذا حدث ؟

حنق صقر على مولد اسماعيل الذى اقتحم عليه عذابه وأجل عزاءه المأمول لوقت لا يعرف مداه !

ــ ولدته أمه فى ثمانى عشرة ساعة ! ، جاءها الطلق الساعة السادسة صباحا وأدركها الفرج عند منتصف الليل ! ، أى عذاب تتخيله ؟ ، ومع ذلك كله فقد ولدت فى البيت وبوساطة حكيمة لا دكتور ولا دياولو !

فهز صقر رأسه كأنما يتذوق عبرة حقيقية ، ثم تساءل :

ــ لكن ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟

ــ تهويش أطباء ، هذا مدى علمى ، هل عندها ضغط أو زلال أو سكر ؟

ـ كلا ..

ـ اذن فهى لا شىء ، وقد قالوا لنا عند مولد ابنتى عزيزة انه لابد من جراحة ! ، لماذا ؟ ، الحكاية أن الولادة طالت أكثر من المتوقع فاستعانت الحكيمة بدكتور فنصح بنقلها الى المستشفى لاجراء جراحة عاجلة ، وقبل أن يبتعد مترا عن بيتنا جاء الفرج !

تابعه بنظرة مغيظة وهو يطحن الفول السودانى بتلذذ عجيب . واذا به يقول مسترسلا فى ذكرياته :

ـ الولادة العسيرة حقا كانت ولادة سوسن ابنة أختى !

نظر صقر الى الأرض ليخفى كربه فواصل الآخر حديثه :

ـ كانت ضعيفة القلب ، وأجمعوا على اجراء جراحة ، واستكتبوا زوجها اقرارا بالموافقة ، وشقوا بطن البنت ..

ـ شقوا البطن ؟ !

فضحك جميل قائلا :

ـ هى الآن بفضل الله كمفتشات الرياضة البدنية ! .

وخيل اليه أنه سيدخل فى حديث ولادة أخرى فقام الى التليفون وسأل عن الحال فجاءه الجواب بأنها نائمة فى هدوء تام . وعاد الى مجلسه كارها فقال له جميل :

ـ يجب أن تعود الى المسرح ، أنا لا أحب السينما ، وان شئت فاعمل فى الاثنين ولكن لا تنقطع للسينما !

فتمتم بفتور :

ـ أنا هجرت المسرح منذ أكثر من عشرين سنة !

ــ ولو ! ، هذا رأى الأستاذ سمير عبد العليم أيضا ، وعلى فكرة قابلته قبل مجيئى الى القهوة مباشرة وكان يسأل عنك ، والظاهر أنه اتصل بك فى المنزل حينما كنت فى المستشفى ..

ــ ماذا يريد ؟ .. ألم يقل لك ؟

ــ أبدا ، مطالبه لا تنتهى كما تعلم ولكنه ظريف وابن حلال ..

استقل سيارته الى مجلة « كلام الناس » حيث وجد صديقه الناقد سمير عبد العليم يكاد أن يختفى وراء الأوراق المكدسة فوق مكتبه . تعانقا وسمير يقول :

ــ بحثت عنك فى كل مكان ، أين كنت ؟

فجلس وهو يقول مرحبا بالفرصة التى واتته لاعلان أحزانه :

ــ كنت فى المستشفى ، راضية فى حالة ولادة !

هنأه بصوت خطابى وهو ينكب على الأوراق باحثا عن شىء هام فيما بدا ، فقال صقر :

ــ ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجراحة !

والظاهر أن سمير لم يسمعه لشدة انهماكه فى البحث غير أنه قال بمرح :

ــ نحن نطالب بولى عهد للمسرح الكوميدى !

فرفع صقر صوته قائلا :

ــ ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجراحة !

انتبه سمير اليه وقد كف عن البحث لحظة فأعاد صقر على مسمعه أقوال الطبيب ، فقال الناقد :

ــ ربنا يكتب لها السلامة ، الطب تقــدم وانقضى عهد الجراحات الخطيرة ..

ثم انهمك فى البحث مرة أخرى وهو يقول :

ــ أنا نفسى جئت الى هذه الدنيا بجراحة ، وفى زمان كان الطب فيه كالطب عند قدماء المصريين ، يا سلام على الفنانين وأعصابهم المرهفة .

وندت عنه آهة ارتياح لعثوره على الأوراق التى كان يجدّ فى البحث عنها ، وأخذ يرتبها بعناية وهو يقول بنبرة جديدة دلت على أنه نسى الحديث الأول تماما :

ــ اتفقت مع صوت العــرب على برنامج جديد أسبوعى باسم « أهل الفن » واخترت أن أبدأ بك ..

ــ لكن يقولون ان جراحة الولادة خطيرة يا سمير ؟

ــ لا شىء خطير ألبتة ، وستضحك غدا من قلقك هذا على فيك ، المهم أن هذا البرنامج يقتضى تسجيل مناظر من مسرحياتك القديمة ، الأفلام أمرها سهل ويمكن تسجيلها فى أى وقت أو طبع نسخ جديدة من الفصول التى يتفق عليها ، ولكن المسرحيات كيف نسجلها ، كيف تجمع الممثلين القدامى ؟ ، ومن يحل محل الذى مات منهم ؟ .. هذه المشكلات ومثيلاتها تشغلنى طبلة الوقت ..

أوشك أن يغضب ولكنه استسخف نفسه فانزوى فى وحدة حالكة .

ـــ ما رأيك فى هذا النظام ؟ ، سأبدأ بمقـــدمة عنك ألقيها بنفسى ، يعقب ذلك حوار بينى وبينك أنا أسأل وأنت تجيب ، يتخلل ذلك مناظر من المسرحيات ومواقف من الأفلام ، ثم جلسة عائلية فى بيتك ، ولكن آه .. راضـــية ستكون متوعكة ربنا يشفيها ؟!

ـــ آمين ، ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟

ـــ كل خير ، لا تصدق الأطباء ، الصعوبة الحقيقية فى تسجيل المسرحيات القديمة ، اتصلت بكثيرين من الممثلين ، ولكن هل لديك أصول المسرحيات ؟ !

ولما لم ينبس بكلمة قال سمير :

ـــ أنت لست معى ؟

ـــ معك ، عندى الأصول ، عن اذنك التليفون ..

وكرر السؤال عنها فتلقى نفس الجواب ، وأعاد السماعة مغمغما « يا رب » . وقال سمير :

ـــ تعال لمقابلتى فى الاذاعة مساء الأحد ..

ـــ ربنا يطمئننى أولا ..

ـــ ان شاء الله ، لا تكن خوافا هكذا ، ألا ترى أنك تذكرنى بدور الباشكاتب الذى تفوقت فيه على نفسك !

عاد الى قهوة الشمس فوجد أن مجلس الزملاء قد انعقد

كشأنه ظهر كل يوم . وصمم على ألا يعلن شكواه لأحد فجاراهم في أحاديثهم بقلب غائب واشترك أحيانا في قهقهاتهم التي ترج القهوة في تلك الساعة من النهار . وعند الواحدة قاموا ليتناولوا الغداء في المقطم ، ودعوه للذهاب معهم فاعتذر ، فمضوا الا واحدا هو حيدر الدرمللي ، وهو زميل قديم عمل في مسرحه ملقنا ويشتغل اليوم مدير انتاج في شركة سينمائية . ولم يدر بالسبب الذي جعل حيدر يتخلف عنهم حتى قال هذا بقلق :

ـــ ظهرت نتيجة تحليل الدم وهي ليست على ما يرام !

تذكر أنه شكا اليه مرضا ألم به منذ عشرين يوما في أحد الاستديوهات فقال له معتذرا :

ـــ آه نسيت أن أسأل عن صحتك بسبب زياط اخواننا وتهريجهم ، آسف يا حيدر ، أنا شخصيا في كرب عظيم !

واضطر حيدر الى تأجيل الكلام عن تحليل الدم الى حين وسأله :

ـــ لم والعياذ بالله ؟

فحدثه عن حال زوجته حتى قال حيدر :

ـــ أسأل الله لها السلامة ، ولعل الولادة تتم دون جراحة ، ولكن خبرني ماذا تعلم عن زيادة كريات الدم البيضاء ؟

ـــ لا أدري ، وعلى أي حال فالطب تقـدم جدا ، فوق ما تتصور ، ولكن .. ولكن أنا المسئول !

ـــ أنت ؟ !

ـــ نعم ، كان يجب أن أحتاط فلا أسمح بالحمل مهما تكن الظروف ..

هز حيدر رأسه فى امتعاض وهو يتكلف الاهتمام بكلام الآخر تكلفا ولكنه لم ينبس بكلمة فقال صقر :

ـــ ولما وقع المحذور كان على أن أجهضها بأى ثمن ، وهاك نتيجة الاهمال ..

فتمتم حيدر وهو يجول فى المكان بنظرة ذاهلة :

ـــ دنيا ! ، يعنى أنا كان مالى ومال الكريمات البيضاء !

ـــ على رأيك ! ، وهل تدرى ماذا تعنى جراحة الولادة ؟ .. شق البطن !

ـــ ربنا لطيف بالعباد ، وهل تدرى أنت أن مرضى يجهله أطباؤنا ويقفون حياله حيارى ؟

ـــ لا تتشاءم ، ربنا لطيف بالعباد كما تقول ، والا فمن لأم تتعذب هذا العذاب وهى تهب الدنيا مولودا جديدا ؟ !

وأجهدهما الكلام فيما بدا فلاذا بالصمت . واندفن كل فى ذاته فاجتر أحزانه وحده . ونظر صقر فى الساعة ثم طلب القهوة الرابعة مذ غادر المستشفى وأشعل السيجارة العاشرة . وتساءل عما يخبئه له اليوم ! . وتجنب صاحبه كما تجنبه صاحبه فقام بينهما سد . وقال صقر وكأنما يحدث نفسه :

ـــ انى أعجب كيف أنى أكرس حياتى لاضحاك الآخرين !

فتساءل حيدر بنبرة باردة :

ـ ألا يدفعون ثمن ذلك بسخاء ؟

ولم يناقشه رغم ما بدا له من امكان ذلك . وعاد ينظر فى الساعة ويتساءل عما يخبئه له اليوم .

وأغمض عينيه فشعر بشىء من الراحة ولكن ضوضاء الطريق ضايقته كما لم تضايقه من قبل فود لو يغرق كل شىء فى الصمت ..

بيت سيئ السمعة

كان منهمكا فى عمله عندما استأذنت سيدة فى مقابلته . وجلست وهى تقول :

ـــ صباح الخير يا أستاذ أحمد ..

سيدة واضحة الكهولة ، مقعرة الخدين من ذبول ، بارزة الفم ، تعكس عيناها نظرة متعبة ، وتضفى عليها ملابس الحداد تجهما وكآبة . وسرعان ما أدرك من مطلع حديثها أنها قصدته بأمل أن يسهل لها الاجراءات الخاصة بمعاشها . وهمّ بتحويلها الى مدير المعاشات مشفوعة بتوصية غير أن لمحة فى نظرة عينيها المتعبتين استرعت انتباهه . خيل اليه أنها ترمقه بنظرة خاصة تراوح بين الارتباك والخجل . ما سر ذلك ياترى ؟ ، هل تعرفه ؟. وفى الحال ومضت فى ذاكرته ومضة أضاءت غياهب الماضى فهتف فى ذهول :

ـــ حضرتك .. ؟

قالت وهى تغض بصرها فى حياء وتأثر :

ـــ نعم ، ومن حسن الحظ ألى عرفت أن حضرتك مراقب عام المستخدمين !

ولم يكن تذكر اسمها ، ولكن وثب الى ذهنه اسم التدليل

الذى عرفت به : « ميمى » . ان منظـــرها أكبر من عمرها . وعمرها لا يمكن أن يجاوز الخمسين . ولعله من الذوق أن يختلق سببا لعدم معرفتها بالسرعة التى ــ لا شك ــ توقعتها . قال :

ــ كنت مشغــولا جدا فنظرت اليك بعينين غائبتين فلم أعرفك ..

فابتسمت عن طاقم نضيد وقالت :

ــ أنا تغيرت أيضا ، الضغط ربنا يكفيك شره ، والحياة أنهكت أعصابى ، لى بنتان متزوجتان ، وثالثة فى بعثة ، وعندما وصلنا الى بر الأمان توفى المرحوم زوجى ..

وتبادلا السؤال عن الأسرتين فتردد ذكر من تزوج ومن مات ومن يقيم فى القاهرة ومن انتقل الى الأقاليم ، وكان فى أثناء ذلك يحاول أن يستحضر صورة ميمى القديمة بصعوبة لا تكاد تقهر فاحتج مرات على قسوة العبث . وأخيرا كتب لها توصية الى مدير المعاشات وانتهت المقابلة .

عاد الى مجلسه ــ بعد أن أوصلها الى الباب ــ وهو يعيش فى حلم . وبحث فى ضباب الحلم عن عام . أى عام يا ترى ؟ . ١٩٢٥ . عام ملىء بالأحداث التاريخية ولكن ميمى كانت أهم من تلك الأحداث جميعا ، ميمى وبيتها العجيب ، ومنشية البكرى القديمة الراقدة فى صحراء البنديرة . شارع الملوانى ، والبيوت الصغيرة ذات الدور أو الاثنين تصطف على جانبيه ، ومن أعالى الأبواب الخارجية تتدلى مصابيح للاضاءة ليلا . كل بيت ينطوى على نفسه كالسر . النساء عورة والحب حرام .

والزواج اجراء من اختصاص الرجال والعروس آخر من يعلم . غير أن بيت آل جلاوة خرق العقل والمعقول وقام وحده ككلمة متحـدية . عرف بالبيت السيىء السمعة وأحيط بسـياج من الرهبة . ومجرد جريانه على لسان صـبى أو بنت كان جريرة يستحق من أجلها الزجر . وضربت حوله المقاطعة كأنه وباء . وحتى اليوم لا يذكر الا مصحوبا بسوء الظن وبذلك تحدد فى التاريخ . آه .. كيف كان ذلك ؟!

كانت ربة البيت ــ وهى زوج لموظـف كبير ــ امـرأة متبرجة . تتبدى فى الطريق فى كامل زينتها عارضة حسنا رائقا رغم بلوغها الخمسـين وهى السن التى انتهت عندها ميمى . وكانت أول امـرأة فى الحى ترى سافرة فلا برقع أبيض ولا أسود ، وقد تصطحب معها بناتها الأربع فتمضى بهن سافرات كذلك ، آخذات زينتهن وهو ما لم يسمح به لبنت قبل خطبتها . وكن يذهبن مرة فى الأسبوع ــ مع الزوج أو دونه ــ الى سينما كوزموجراف ، وقد يسهرن فى مسرح من المسارح فلا يرجعن قبل الواحدة صباحا . أى امرأة وأى رجـل وأى بنات ! . والأدهى من ذلك كله أنه كان للأسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الأسر بكامل هيئتها فيختلط الجنسان بلا حرج . وكان شبان الحى يسيرون جماعات تحت حجـرة الاستقبال المتلألئة بالأنوار ، يصغون الى الضحكات المتصاعدة ، وعزف البيان ، والغناء ، وكلما ظهر فى النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا فى التأويل كل مذهب وتخيلوا أعجب المواقف . لذلك

كله لم يكن غريبا أن يذكر بيت حلاوة مقرونا بلفظة « دعارة » دون مناقشة . وكانت الأسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ولكنها لم تكترث لذلك أدنى اكتراث ، وترفعت الهانم عن الجميع وسارت فى طريقها شامخة الأنف كأنها من سلالة غير سلالة الحى جميعه .

وكانت ميمى ترى كثيرا فى الطريق أو فى دكان الحلوى . ترى وحيدة وكانت صغرى البنات وفى الخامسة عشرة . وكانت جميلة كأخواتها وأمها وان لم يعد يذكر من آى ملاحتها الا شعرها الأسود المتجمع فى ضفيرتين رياتين وعينين خضراوين وغمازة فى الذقن . وكان يسترق اليها نظرات دهشة متسائلة مليئة بحب الاستطلاع ، ولم تخل أول الأمر من ازدراء وسخرية ثم حل محلهما اعجاب وافتتان فكان يقول لنفسه محزونا : « يا للخسارة ! » . وشغف بها وكان يكبرها بعام أو اثنين ، واحتفظ بسره لنفسه قطعا للألسنة ، وكان البعض يغازلها طمعا فيها باعتبارها صيدا سهلا ولكنه لم يكن عرف الاستغلال قلبه . وذات مساء وهبته نظرة على غير انتظار . كانا واقفين بدكان الحلوى فوهبته نظرة غير قصيرة أثملته فترنح بعيدا عن تيار الزمان وأفعمت قلبه بهجة ظافرة . فاض قلبه بسعادة مشرقة اقتلعت منه الوساوس فلم يعد يشترك فى الأحاديث البهيمية عن البيت السيىء السمعة . وآمن بأن شعور قلبه الأصيل أخطر من جميع ما يقال . وفى ليالى رمضان راح يلاعبها من بعيد بكبريت الهوا فيشعله فى الطريق فتشعله بدورها فى النافذة . وتواعدا



.. وان لم يعد يذكر من آى ملاحتها الا شعرها الأسود المتجمع
فى ضفيرتين ريانتين وعينين خضراوين وغمازة فى الذقن ..

على اللقاء عند صحراء البنديرة . ووجد نفسه عند اللقاء مرتبكا حقا ولكنها بادلته التحية دون تلعثم وبشجاعة ردت اليه روحه الضائعة . وقالت :

— أنت فى البدلة أرشق مما تظهر فى الجلباب وأنا أحب الرشاقة !

وكل كلمة جادت بها كانت كشفا جديدا وجرأة مذهلة . وكانا صغيرين جدا بالقياس الى خلفية الصحراء المترامية وراءهما ورغم ذلك قال فى حذر :

— قد يرانا أحد !

فتساءلت :

— مثل من ؟ ؟

— من الأهل أو الجيران .

فهزت منكبيها استهانة وهواء الصيف المنعش يهفو بضفيرتيها ثم سألته :

— ما رأيك فى حديقة الحيوان ؟

وامتنع عن تقبيلها تأدبا رغم سنوح الفرص . وأعطته رقم التليفون ليتفقا فى الوقت المناسب ولعله ما يزال مسجلا فى دفتر المذكرات القديم . وسألته :

— هل نذهب الى الحديقة معا ؟

فقال برجاء :

— نلتقى هناك ونفترق هناك !

وتلاقيا عند باب الحديقة وكان يوم سعيد . سارا من ممشى

الى ممشى بيدين مشتبكتين . واستمد من مسها تيارا من الحرارة والبهجة والرضى . وسألها كأنما ليطمئن عليها :

ـــ ماذا قلت لماما ؟

فاجابت ببساطة :

ـــ قلت انى ذاهبة الى حديقة الحيوان !

فتساءل أحمد ذاهلا :

ـــ وحدك ؟

فهزت رأسها نفيا وقالت بالبساطة نفسها :

ـــ معك ..

فضحك معلنا عدم تصديقه ولما وجدها جادة حقا سألها :

ـــ وهل وافقت ؟

ـــ نعم ! ، ولكن دون حماس ..

لم يدر كيف يصدق هذا كله أما هى فاستطردت :

ـــ قالت لى ابتعدى عن هذا الولد ، انه كالآخرين ، وأهله كبقية الجيران ..

وشعر بأنه مطارد . ووقف طرفه الحائر عند رأس نعامة سارحة فى الفضاء من فوق الحاجز الحديدى .

ثم قال بقلق :

ـــ اذن هى تعلم اننا هنا معا .. !

ـــ وراهنتنى على أنك ستخيب رجائى ..

ـــ كيف ؟

ـــ من أدرانى ؟

بل هى تدرى ولكنها تظاهرت بالاهتمام بالقرود ، ثم وقفت فوق قنطرة تتأمل الماء المسقوف بأوراق الشجر ، واقترحت أن يعدوا حتى الجبلاية ولكنه شد على يدها قائلا :

ــ خبرينى !

فنظرت فى عينيه بجرأة وقالت :

ــ أنت لا تصدق أنها تعــرف أننا هنا معا ولكنك تسلم بزواج أخيك الأكبر من ثلاث فى وقت واحد !

فاحمر وجهه وقال :

ــ هو حر ..

ــ لا تغضب من فضلك ، فغضبك يوكد ظنها ، هل عرفت الآن ما سألت عنه ؟

وداخله حــزن . الواقع فاق ما تخيــله . انهما من عالمين بعيدين . ورغم ذلك ازداد بها هياما .

ثم تساءل بصوت منخفض :

ــ وكيف وافقت على هذا اللقاء ؟

ــ لم لا ؟ ، هو عيب ؟ !

ولم ينبس فسألته بسخرية خفيفة :

ــ ولم وافقت عليه أنت ؟

فلم ينبس أيضا فسألته :

ــ أيجب أن نفترق ؟ !

فاستعطفها بحرارة لتعود الى الرضى وقال معتذرا :

ـــ لا تغضبى ، أنا أخطىء كثيرا وعذرى أنى أقابل بنتا لأول مرة !

فرمقته بتوجس وتساءلت :

ـــ وماذا تظن بى أنا ؟

فبادرها تجنبا للمضاعفات :

ـــ كل خير ، أنا .. ، أنا أحبك يا ميمى ..

وابتسمت . ومضت به الى أريكة تمتـــد أمامها هضـــبة معشوشبة تناثرت فى جنباتها مجموعات من البشر فجلسا جنبا الى جنب صامتين ، حتى قطعت الصمت قائلة :

ـــ حدثنى عن مستقبلك ..

وتحدث عن مستقبل مشرق من خلال كلية الحقوق وان يكن أوشك أن يختم حياته مراقبا للمستخدمين لا مستشارا فى النقض كما حلم ، فقالت :

ـــ هذا جميل حقا ، ولكن ماذا عنى أنا ؟

ووجد نفسه فى القفص كالحيوانات التى تحيط به من كل جانب فقال فى اقتضاب شديد حددته الرهبة :

ـــ الزواج .. !

فابتسمت وهى تحول وجههـــا عنه مادة بصرها الى قمة الهضبة الخضراء وقد غابت عن مسمعه ضجة الأصوات الآدمية والحيوانية ، ثم قالت وهى ما تزال تنظر الى بعيد :

ـــ ولكن أمامنا أعواما طويلة ! .. كيف ... ؟

فقال وهو يتلمس متنفسا :

ـ لابد من الانتظار حتى أنتهى من الدراسة ..

ـ سأنتظر بكل سرور ، ولكنى فى حاجة الى شىء يبرر انتظارى أمام الآخرين ، أى شىء ، ارتباط من أى نوع ؟ !

تخيل طلبه الارتباط ببنت من البيت السيىء السمعة بتعاسة ورعب ، وانعقد لسانه فلم ينطق ..

ـ ماذا قلت ؟

ـ من العسير حقا أن أطلب ذلك الآن ..

ـ ألا تقدم على هذه الخطوة من أجلى ؟

فتنهد بصوت مسموع وهو يشعر بأنه جرى مرحلة طويلة من التاريخ دون توقف ، فقالت بحدة :

ـ أنت لا تريد ، ليس عندك الشجاعة الكافية ، أبيتنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

ـ لا .. الأمر وما فيه ..

ـ لا تكذب ، أنا أعرف كل شىء ، وماما لم تخطىء ، وشارعنا كله سخافة فى سخافة ، ونحن أشرف من الجميع ، يجب أن تعرف ذلك ..

فهتف متألما :

ـ انك تسيئين بى الظن ، أنا فى حاجة ... ، أرجو أن تقدرى موقفى ، أعطينى ..

ـ لا داعى لهذا الارتباك كله ، لننس كل ما قيل ، كله سخيف من أوله الى آخره ..

ـ لكننى أحبك ، ليكن الأمر سرا بيننا حتى ..

ـــ نحن لا نحب السر !

ـــ حتى أقف على قدمى ! ؟

ـــ لن تقف على قدميك أبدا ..

ثم وهى تكاد تمزق منديلها الصغير من الانفعال :

ـــ أعوذ بالله ! ، أنا لا أحترم أحـــدا فى شارعنا ! .. بلا استثناء .. بلا استثناء ..

هكذا انفصلا الى الأبد .

وكان يستقبل سيل الذكريات وهو ينظر الى الكرسى الذى طالعته منه بوجه لم يحفظ من ماضيه الا أضعف الأثر . أرملة أضناها التعب والحـــداد ولكنها معتزة بانتصارات حقيقية . وحومت حوله الذكريات كأسراب من البنفسج . تذكر كيف تزوجت بنات البيت السيىء السمعة واحدة بعد أخرى رغم ما سمع مرارا وتكرارا بأنهن بنات لم يخلقن للزواج ولن يسعى الى الزواج منهن أحد . وكلما جاءه نبأ عن توفيقهن فى زواجهن ذهل واختلت موازينه .. !

ومضى الى بيته بعد ميعاد انتهاء العمل الرسمى فتغدى ونام ليستعد لسهرة فى الأوبرا دعى اليها هو وزوجته وبناته الثلاث . وكان الداعى زميلا لكبرى بنـــاته الموظفة فى ادارة الترجمة بالوزارة وقد قبل الدعوة رغم أن الداعى لم يرتبط بكريمته بأى ارتباط بعد !. وعند المساء خلا الى نفسه فى حجرة مكتبه على حين نشطت الزوجة والبنات للاستعداد لسهرة الباليه المنتظرة . عما قليل يتبدين فى صورة كاملة من الزينة والأناقة ثم يتقدمنه

تحت الأضواء والأنظار ترمقهن باعجاب ! . ولم يكن غريبا أن يستخرج دفتر مذكراته القـديم من الدرج الخاص بالأوراق الثمينة كعقد ملكية الأرض وبوليصة التأمين . وكان اعتاد على عهد المراهقة ـ وهو عهد كان يحلم فيه بعرش الزجل ! ـ أن يسجل أحداثه العاطفيـة والاجتماعية يوما بعد يوم . وفرّ صفحاته ليرجع الى عام ١٩٢٥ وما حواليه . حتى رقم التليفون وجده . وبدافع لم يعرف كنهه امتدت يده الى قرص التليفون فأدارت الرقم القديم . وجاءه صوت :

ـ آلو ؟

فسأله وهو يبتسم فى عبث :

ـ بيت حلاوة ؟

فأجاب الصوت بخشونة :

ـ لا يا سيدى .. هنا محل الطمبلى لبيع الخيش ..

القهوة الخالية

قال محمد الرشيدى بنبرة أرعشها الحزن والانفعال :

ـ الى رحمة الله الرحيم ، الى جوار ربك الكريم يا زاهية ، يا رفيقة عمرى ، الى رحمة الله ..

وانتحب باكيا وهو ينحنى فوق الجثة المسجاة على الفراش ، معتمدا بيمناه على الوسادة من شدة الأعياء ، حتى رحمته الخادم العجوز فربتت على يده برقة ثم أخذته منها الى حجرة الجلوس فأسلم نفسه الى مقعد كبير وهو يتنهد بصوت مسموع . ومد ساقيه وهو يتأوه ثم غمغم :

ـ أنا الآن وحدى ، بلا رفيق ، لم تركتنى يا زاهية ؟ ، وبعد عشرة أربعين عاما ! ، لم سبقتنى يا زاهية ؟

وعزته الخادم بعبارات محفوظة غير أن منظر شيخ فى التسعين وهو يبكى منظر محزن حقا ، وقد التمعت أخاديد خديه وحفر أنفه بالدموع ، فغادرت الخادم الحجرة وهى تجهش فى البكاء . وأغمض عينيه اللتين لم يبق فى أشفارهما الا آحاد من الرموش وراح يقول :

ـ منذ أربعين عاما تزوجتك وأنت فى العشرين ، ربيتك

على يدى ، وكنا سعداء جـداً رغم فارق العمر ، وكنت خير رفيق ، يا طيبة يا انسانة ، فالى رحمة الله ..

وكان ذا صـحة جيدة اذا قيس بعمره ، طويلا نحيـلا ، واختفى أديم وجهه تماما تحت التجاعيد والأخاديد ، وبرزت عظامه وتحددت كأنها جمجمة ، وفى عينيه غارت نظرة تحت غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيات هذا العالم . وأمّ الجنازة خلق كثيرون لم يكن فيهم واحد من أصحابه أو معارفه . جاءوا يعزون ابنه أو اكراما لزوج ابنته الموظف باحدى السفارات فى الخارج أما هو فلم يبق من أصحابه على قيد الحياة أحد . وجعل يستقبل الوجوه التى لا يعرفها ويتساءل أين رعيل المربين الأول ، أين الساسة الحقيقيون على عهد مصطفى وفريد ؟!.

وعندما انفض المأتم حوالى منتصف الليل سأله ابنه صابر :

ـ ماذا نويت أن تفعل يا أبى ؟

وقالت له زوجة ابنه :

ـ لا يجوز أن تبقى هنا وحدك ..

أدرك الشيخ ما يقصدان فتشكى قائلا :

ـ كانت زاهية كل شىء لى ، كانت عقلى ويدى ..

فقال صابر :

ـ بيتى هو بيتك ، وستحل بحلولك بنا البركة ، وستجىء خادمتك مباركة لخدمتك .

أجل لا يمكن أن يقيم فى هذا المسكن وحده . ورغم مايبدى ابنه وزوجته من شـعور طيب فهو يؤمن بأنه ـ بانتقاله ـ

سيفقد الكثير من حريته وسيادته ولكن ما الحيلة ؟ ! . وكان في شبابه ورجولته وكهولته شخصا صلبا ، وما زال يحتفظ بوقاره ومهابته ، وكم خرّج من أجيال من المربين والشخصيات الفذة ، ولكن ما الحيلة ؟!. وبطرف واجم شهد الرجل تصفية مسكنه . رأى أركانه وهى تتقوض كما رأى احتضار زوجته من قبل فلم يبقوا الا على ملابسه وفراشه وصوان كتبه التى لم يعد يمد لها يدا وبعض التحف وصور لأعضاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل ومحمد فريد والمويلحى وحافظ ابراهيم وعبد الحى حلمى . وغادر بيته الى مصر الجديدة فى سيارة ابنه ، وهنالك أعدت حجـــرة لنومه وتأهبت مباركة العجوز لخدمته . وقال له ابنه :

ـــ نحن جميعا رهن اشارتك ..

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب . روح طيبة حقا ولكنه لا بيت له ، ذلك كان الشعور الذى اجتاحه . وجلس على مقعده الكبير يبادلهما النظرات فيما يشبه الحياء . وقال لنفسه لعله لو كانت سميرة ابنته فى مصر لوجد فى بيتها أنسا ألصق بالقلب . وظهر توتو عند عتبة الباب . ردد عينيه بين أبويه ثم جرى حتى لبد بين ســـاقى والده . ونظر الى جده بتأمل فابتسم الشيخ قائلا :

ـــ أهلا توتو .. تعال ..

ونادرا ما كان توتو يزور جده مع والده . وأحبه الشيخ كثيرا ولم يقتصد فى مداعبته كلما وسعه ذلك ولكن توتو كان

حادا فى مداعباته ، فهو يحب الوثب على من يداعبه ويهدد عينيه وأنفه باظافره فسرعان ما تجنبه الشيخ بلطف مؤثرا أن يحبه من بعيد . وأشار توتو الى طربوش جده الطويل وقال :

ــ راسك !

يعنى أن يخلع طربوشه ليرى صلعته البرتقالية المستطيلة المنحدرة التى جذبت اهتمامه وتساؤله من أول نظرة ، ولما لم تتحقق رغبته راح يشير الى أخاديد الوجه وحفر الأنف وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لاسكاته . وقال الشيخ لنفسه ان الطفل العزيز لن يعتقــه من المتاعب وأنه سيحتاج الى حماية ولكن أين زاهية ؟ . وساعته ومنشته وسجائره كيف يحفظها من عبثه ؟ . وحاول توتو أن يذهب الى جده ليحقق رغائبه بنفسه ولكن والده أمسك به ودعا خادمته فحملته الى الخارج وهو يصرخ محتجا . وقال صابر :

ــ انى أفرغ من عملى مساء ثم أذهب الى النادى أنا ومنيرة فهل تأتى معنا ؟

فقال الشيخ :

ــ لا تشغل نفسك بى ودع الأمور تجرى على طبيعتها ....

وذهب صابر ومنـيرة فرحب بالوحدة ليستجم . ولكن الوحدة ثقلت عليه بأسرع مما تصور . وألقى نظرة غير مكترثة على الحجرة ثم طوقته الوحشة . متى يعتاد المكان الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية ؟ . أربعون عاما لم تخل يوما من زاهية . منذ زفت اليه فى الحلمية ورقصت أمامهما الصرافية . والبيت

بفضل يدها ينعم بنظام ونظافة وعبير بخور زكى . وما قيمة رمضان والأعياد بدونها ؟ . وخلت الجنازة من أجيال وأجيال من تلاميذه فهل لم يعد يذكره أحد ؟ ! .

ولم يكن كذلك حال الأصدقاء الذين ذهبوا . ولكنهم ذهبوا وكأنما تراهم فرداً فردا كيوم احتشدت بهم جنازة مصطفى كامل. ورغم أنه لم يعرف الأمراض الخطيرة قط فقد امتحنت المسكينة بالدنج والتيفود والأنفلونزا وأخيراً ماتت بالقلب ، وتركته متعلقا بالحياة كما كان دائما . وقام الى نافذة فرأى منها بستانا كبيرا يتوسط مربعا من العمارات مكان الجامع الكبير الذى كان يطالعه من نافذة حجرته بالمنيرة . ولفحته نسمة هواء جافة دافئة . وعجب للصمت المريح ولكنه أكد له وحـدته . ويوم احتل الانجليز القاهرة ظفر بجواد ضال ولكن والده خشى العاقبة فضربه ومضى بالجواد ليلا الى الخليج ثم أطلقه وكانت المدينة ترتجف من الخوف والحزن . ورجع الى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد قطة صغيرة . بيضاء ناصعة البياض غزيرة الشعر وفى جبينها خصلة سوداء فآنس فى نظرة عينيها الرماديتين استعدادا للتفاهم . وزاهية طالما عطفت على القطط . وارتاح الى نظرتها ثم تابعهـا وهى تدور حول رجل المقعـد وربت على ظهرها فتمسحت بقدمه وعند ذاك ابتسم . ومسح على ظهرها فاستجابت لراحته وخفق ظهرها صعودا وهبوطا فبشر ذلك بعودة . وابتسم مرة أخرى عن أنياب بانت أصـولها الطحلبية وشملت القطة حركة متموجة من المرح . وتزحزح قليلا الى اليسار ليوسع لها

مكانا ولكن صوت توتو المتهدج بالجرى ارتفع وهو يقتحم الحجرة صائحا :

ـ قطتى ..

فقال الشيخ مسلّماً :

ـ ها هى قطتك ..

وسأله متوددا عن اسمها فقال بحدة :

ـ نرجس .

وقبض بشدة على قفاها ثم جرى بها خارجا والشيخ يهتف به مستعطفا :

ـ حاسب .. حاسب ..

واذا به قد ذهل !. عجب ماذا حصل ؟. وتبين أن شيئا أصاب جبينه . وقطب مستاء فارتفعت ضحكة توتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرة المرتدة . وتحسس الشيخ النظارة ليطمئن عليها ثم نادى مباركة فجاءت بسرعة وحملت الطفل مبتعدة به قبل أن يعيد رمى الكرة . وقال الشيخ :

ـ هذا الطفل العزيز مزعج وقاس ، من للقطة المسكينة !

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلا فى سن توتو فعزاها باكيا وهو يقول :

ـ كان الأجدر أن أموت أنا ..

وخيل اليه وهو فى المأتم أن الأعين ترمق شيخوخته بدهشة مستحضرة التناقض الصارخ بين بقـائه هو وذهاب حفيده فى الثالثة . وليلتها قال لزاهية ممتعضاً :

ـــ طول العمر لعنة ..

ولكن ما أرقهـــا اذ قالت له « كلنا فداك ... أنت الخــير والبركة » .

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه :

ـــ ما دمت لا تريد أن تذهب معنا الى النادى فاختر مقهى فى مصر الجديدة ، مقاهى مدينتنا جميلة وقريبة من البيت ...

قد يكون هذا هو المعقول ولكنه يحب قهوة ماتاتيا . انها مجلسه المختار طيلة دهر طويل . ومضى الى محطة الأوتوبيس . وهو يسير اذا سار وئيدا ولكن بقامة مرتفعة ويستعمل العصا ولكنه لا يتوكأ عليهـــا ، وكثيرون هم الذين يتطلعون اليه فى دهشة مقرونة باعجاب . واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية !». ولم تكن القهوة خالية . ولا كان بها من الترابيزات الخالية الا عدد محدود . ولكنها خلت من الأصحاب والمعارف . ومن عادته أن يرنو الى الكراسى التى حملت قديما الأعزاء الراحلين فيتخيل وجوههم وحركاتهم . والمناقشات حول أخبار المقطم ، ومباريات النرد الحامية ، والسياسة . قضى الله أن يشيعهم واحدا بعد آخر وأن يبكيهم جميعـــا . وجاء زمن لم يجـــد فيه من رفيـــق سوى واحـــد هو على باشـــا مهران . وهـــذا الكرسى كان مجلسه . يجلس عليه قصـــيرا نحيلا مكوما فوق عصاه وحافة

طربوشه تماس حاجبيه الأشيبين النافرين ، ويرمقه بنظرة هشة شبه دامعة من نظارة كحلية ثم يتساءل :

ـ من منا يا ترى سيسبق صاحبه ؟

ثم يغرق فى الضحك . وكانت يداه قد استوطنتهما رعشة الكبر رغم أنه كان يصغره بعامين . ولما مات فى الخامسة والثمانين حزن عليه طويلا ، ومن بعده خلت الدنيـا ، وخلت القهوة . وها هى العتبة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتين ولكنها ميدان جديد . وماتاتيا نفسها لم يبق من أصلها الا الموضع ، ولكن أين صاحبها الرومى الودود ، وأين الندل ذوو الشوارب البلقانية ؟ . والكراسى المتينة البنيـان والترابيزات الرخامية الناصعة والمرايا المصقولة والبوفيه العامر بالمشروبات والنراجيل أين ؟ . وفى ليلة شم النسيم من عام ١٩٣٠ أحيل الى المعاش . وسهر ليلتها فى مسرح الأزبكية هذا هو ومجموعة من الأصدقاء حيث جلجل صـوت الطرب أما النهار فقد قضوه فى القناطر الخيرية محتفلين بوداعه وألقى الشيخ ابراهيم زناتى قصيدة . وليلتها شرب من الكونياك حتى ثمل وهو يطرب للصوت المنشد « يا عشرة الماضى الجميل » ولما نام آخر الليل حلم بأنه يلعب فى الجنة . ودعا له ابراهيم زناتى مفتش اللغة العربية بمائة عام من العمر المديد فى قصيدته . والدعوة يبدو أنها ستستجاب ولكن القهوة خاليـة . الشيخ زناتى نفسه رحـل وهو ما يزال فى الخدمة . واقترب النـادل منه ليأخذ الصـينية ولكنه تراجع كالمعتذر فذكره بفنجال القهوة المنسى الذى لم يمسه .



.. واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول
لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ! »

وعندما رجع الى البيت وجده راقدا فى السكون ، وصاحبه لم يعد من النادى . ووجد عشاءه من الزبادى على خوان . وغير ملابسه فى بطء وجهد ودون معاونة أحد . وجلس لتناول العشاء فتذكر نرجس . لو تشاركه القطة الصغيرة عشاءه ؟ ! . ما ألطف أن يوثق علاقته بها فهى ستكون أنيسه الحقيقى فى هذا البيت المشغول بنفسه . لعلها فى موضع ما بالصالة . ومال نحو الباب قليلا وهتف : « بس .. بس » . وقام فمضى الى الخارج وصاح : « نرجس ، بس .. بس .. » فجاءه النواء من وراء الباب التالى لحجرته حيث ينام توتو وخادمته . وتفكر قليلا ثم اقترب من الباب ففتحه برفق فمرقت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم .

ارتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهى تتبعه ولكن صرخة توتو دوت غاضبة . وقال الشيخ لنفسه باسما ان الصغير لم يكن استغرق فى النوم . وجاء توتو جريا فانقض على القطة ثم قبض على قفاها بشدة . وربت جده على رأسه قائلا برقة :

ـ خفف يدك يا توتو ..

ولكن الآخر ضاعف ضغطه حتى خيل الى الشيخ أن نرجس ستختنق فقال برجاء :

ـ اذهب أنت وسأحملها الى فراشك ..

ولكن توتو لم يسمع له فمال الشيخ نحوه وخلصها من يده وهو يقول :

ـ سأطعمها ثم أعيدها اليك ..

اندفع توتو غاضبا ثم دفع جده فى ركبته . ترنح الشيخ ، ثم تراجع خطوة مضطربة ، ثم تهاوى فكاد يسقط على الأرض لولا أن تلقاه الجدار ، والقطة لم تزل فوق ساعده . ولبث فى هذا الوضع المائل ، لم يستطع أن يقيم نفسه ، ودار رأسه قليلا . وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولكنه عجز ، وزحفت القطة فوق ساعده حتى استقرت على كتفه المرتفع ، ورغم دوار رأسه الخفيف أدرك مدى الخطر الذى يتهدد عظامه بالكسر . وصاح بما تبقى لديه من قوة «يا مباركة » . وكان توتو يصرخ وينذر توثبه بهجمة جديدة . ويئس الشيخ من انقاذ نفسه . ازداد خورا ولم يستطع تكرير النداء . وتحفز توتو للوثوب الى ملاذ القطة فاندفع بكل قوته ولكن يد خادمته أحاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجرة بعينين ذاهلتين من أثر النوم . ثم جاءت مباركة أخيرا بعد أن أيقظها الزياط فجرت نحو سيدها مستعيذة بالله . واحتضنته من خلف وأقامته برفق وهو يتأوه حتى وقف كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس الى الأرض وفرت الى حجرته . وبصعوبة شديدة رجع الشيخ الى مقعده الكبير معتمدا على ذراع مباركة . ومضت فترة وهو صامت والمرأة لا تكف عن السؤال عن صحته . وأشار لها بيده يطمئنها ، ثم أسند رأسه الى ظهر الكرسى ومد ساقيه متنهدا . وأغمض عينيه ليستجم .

وفى الحال تذكر حفلة تأبين راسخة فى الروح . رجع من المنصة بعد أن ألقى كلمة طيبة ثم جلس الى جانب صديقه .

ومال الصديق نحوه وسكب فى أذنه ثناء جميلا . لكن من كان ذلك الصديق ؟ . آه .. انه واثق من أنه سيتذكره ، وكم أنه مذهل أنه نسيه . قال كلمة لا يمكن أن تنسى كذلك . سوف يتذكرها حتما . ودوى التصفيق والهتاف . وارتفع نواء القطط ، وبكت كل عين حتى الأطفال ترامى صراخها . ومال الصديق نحوه مرة أخـــرى وقال . وتأكد من أنه ســيظفر بالذكريات جميعا .

وسرعان ما استغرق فى النوم ...



كلمة في السرّ

فؤاد أبو كبير موظف قديم أوشك أن يستوفى مدة خدمته .
وهو مثال حسن للموظف ، مثـال فى اتزانه فهو محترم حقا ، ودءوب على العمل فهو حمار شغل ، ولم تزايله هذه الصفة يوما منذ التحق بالخـدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين . وقد انطبع بالروتين حتى تغلغل فى روحه وسرى فى سلوكه حتى السلوك غير الرسمى فهو يرجع الى بيته كل يوم حوالى الثالثة ، يتغدى وينام حتى الخامسة ، ثم يمضى الى القهـوة حوالى السادسة فيدخن النارجيـلة ويتكلم فى الكادر والسياسـة ، ثم يلعب النرد ، وأخيرا يعود الى بيته عند الحادية عشرة فيتعشى عشاء خفيفا ويصلى ثم ينام .

وهو زوج منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، وزوجه التى تزوجها عن قرابة وحب تقاربه فى السن ، وقد أنجب منها خمس بنات وولدا واحدا تخرج منذ أعوام طبيبا ، والجميع متمتعون بنعمة الحياة الزوجية الموفقة .

ولتوفيقه فى الوظيفة اذ حاز رضى الرؤسـاء وبلغ الدرجة الثالثة الادارية ، فضلا عن توفيقه فى الذرية ، كان يخاف العين ،

ويتقى شرها بالدعاء والصـلاة ، ولكنه كان بصفة عامة رجلا سعيدا ، وحتى ما أصابه من ضغط لم يستطع أن يفسـد عليه حياته وان فرض عليه مضايقات فى العلاج وحرمانا من بعض الأطعمة الشهية .

وذات يوم شعر بنشاط غريب طارىء . نشاط غريب كأيام زمان . رباه .. نشاط غريب انقطع العهد به من سنين ، كأيام زمان تماما ، فما الذى حدث ؟! . وابتسم الرجل وهو يهز رأسه ، ابتسم عن طاقم نضيد وهز رأسا أبيض ناصعا . وعابثه النشاط فى أويقات متفرقة وبخاصة عند اليقظة الباكرة ، واذن فهى وثبة حقيقية لا وهم ، وابتسم الرجل وأوشك أن يضحك عاليا . ولم تستطع خبرته الحكومية أن تمده برأى فى المسألة ، وقال لنفسه ان هذا أمر غير معقول ، وغير مصدق ، ألم ينقض العمر ؟!

ونتيجة لذلك وجد نفسه تتابع الموظفات باهتمام لم يؤثر عنها من قبل . نظرة جديدة غير نظرة الأبوة السابقة ، وكأنه كان يراهن لأول مرة ، وخلال أسبوع رأى فيهن ما لم ير طيلة عام أو أعوام ، ومجرد مرور احـداهن فى مجال بصره أصبح كافيا لقلقلة حواسه وزلزلة قلبه فراح يقول لنفسه فى ذهول : « اللهم لطفك ورحمتك ، ماذا جرى ؟! » .

وخطر له وهو متربع على الكنبة قبـل النوم أن يتناول زوجته بنظرة . كانت الوليّة تستمع الى الراديو بغير اهتمام ، وجسمها مدفون فى جلباب بيتى فضفاض ، ومنـديل رأسها معقود باهمـال سمح لخصـلات بيضاء مشعثة أن تبرز فوق

الحاجب والأذن بصورة تستحق الرثاء ، وفى عينيها استكنت نظرة خاملة لا تنشد الا السلامة ، ووشى شدقاها بالفراغ ، الى أن الآلام الروماتزميـــة المتقطعة قد طبعت على وجهها علامات ثابتة كالذعر . رمقها بيأس ثم رفع عينيه الى صورة تذكارية من شهر العسل ، صورة نصفية لهما ملونة ، تمثلهما جنبا الى جنب فى احتشـــام محبب لا كعرسان هـــذه الأيام ، آه .. فـــوزية كانت جميلة حقا ، وكم كان هو بدينا فخما ! . وقال لها دون تمهيد وبلهجة لم تخل من احتجاج :

ــ قلت لك مائة مرة ركبى طاقم أسنان !

وضحت فى عينيها دهشة تنبىء بالحقيقة التى لا يجهلها وهى أنه لم يطلب منها ذلك ولا مرة واحدة ، وغمغمت والدهشة لم تفارقها :

ــ طاقم أسنان !

وحقيقة أخـــرى لا يجهلها أيضـــا وهى أن الأيام قصرت علاقتهما على الزمالة والصداقة منذ بضع سنين فكيف يمكن لهذا الوضع أن يتغير فجأة ؟ ! . وكانت تجلس على نفس الكنبة على بعد ذراع منه ، وفيما بين أويقات الاستماع الى الراديو تتلو آية الكرسى بصوت خافت وبعض السور القصار التى تقيم بها صلواتها الخمس . ولفه احساس بالغـــربة ولكن قلقه الطارىء العجيب كان أقوى من الغربة فقال :

ــ قلت ذلك مائة مرة ! ، ومالك تهملين نفسك الى هذه الدرجة !

فأوقفت التلاوة لتقول له :

ـــ أمرك عجيب ..

يا له من موقف ! . لعنة الله على المرض . وعلى الجنون . لكنك تسب الجنون بلسانك فقط . هـــذا واضح . يا لها من مهزلة . ومد ذراعه على مسند الكنبة الى ما وراء ظهرها ، ثم ربت على قفاها ضاحكا فهزت رأسها متمتمة :

ـــ أمرك عجيب ..

فهمس بعد جهد غير يسير :

ـــ كأيام زمان !

فانكمشت المـــرأة ، تزحزحت حتى طـــرف الكنبة وهى تغمغم :

ـــ يا عيب الشوم !

ولما رآها مقوسة على خجلها أدرك مدى سخفه . وواصل اكتشافاته فى الوزارة والطريق والقهوة حتى احترقت عيناه . وارتدت الأعوام الماضية بحرارتها الاستوائية . وهام على وجهه فى مظان الهوى فى الحدائق وحفلات السينما الصباحية وراح يقول لنفسه : « ما أعجب هذا .. وما أبهجه » . وشعر بأنه مطارد وأنه يوشك أن يضبط متلبسا ، وأنه لا يستطيع أن ينسى عمرا كاملا من الوقار والاستقامة وحسن السمعة . ولكنه لم يتوقف ، بل ولم يعد يقنع بالمغـــامرات النظرية . وذكر أبناءه وأحفاده ، وتوهم أى فضيحة كان يرعش أطرافه ويثلجها . وهل يمكن أن تعالج الأمور بالصبر ؟ . وما جدوى الصبر وهو من

صلب فلاح تزوج فى الحلقة السابعة ! . وما جدواه وهو يشم أريج الحب فى كل مكان ! . وما عسى أن يفعل ؟ . وبعد تردد ثقيل فاتح أحــد أقرانه فى القهوة بمتاعبــه ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ . ضحك الرجل وقال :

ــ الظاهر انك بحكم العمر انقلبت للايمان بالخرافات !

فقال بحدة :

ــ ولكن ما أخبرتك به حقيقة لا شك فيها !

فرفع الرجل يديه بالدعاء قائلا :

ــ اللهم بارك فى عقل فؤاد أبو كبير !

كلا لا فائدة ترجى من هؤلاء الفانين ! . وعاد يتساءل عما عسى أن يفعل ؟ . ست آمنة . وثب الاسم من الظلمات كالشهاب . ست آمنة جارته القديمة بروض الفرج قبل أن ينتقل بأسرته الى المسكن الحالى بالسيدة . وهى صاحبة الشقة التحتانية ، أرملة ، وقد حاولت كثيرا أن تصادق زوجته ولكن فوزية لم تستخف ظلها . ولعلها فى الأربعين أو فوق ذلك بقليــل ، ولا تخلو من وسامة ،أما تأنقها المبالغ فيه فيقطع بحبها الحياة ! . وفى عهد الجوار سنحت بينهما وقائع ولكنه حسمها باستقامته فوئدت ولم يعلم بها أحد . كانت تحييه عند خروجه اذا تصادف وجودها فى النافذة وما أكثر المصادفات . وأكثر من مرة وهو راجع كان يراها من خلال الباب المفتوح وهى تخطر فى قميص بيتى ! . ورغم ارتياحه الباطنى الذى كان باعثه الزهو لا الرغبة فانه لم يشجعها قط زاهدا ومشفقا فى الوقت نفسه من فضيحة تهز

مكانته المرموقة فى أسرته وفى العمارة . ومرة تعرضت له أمام شقتها فحيته ثم قالت :

ــ تسمح دقيقة واحدة يا فؤاد افندى ؟

وارتبك الرجل بشكل واضح فقالت :

ــ لدى مشكلة أود أن أعرضها عليك !

وقع فى لخمة دلت على ذهوله ثم قال بجهد :

ــ تفضلى بزيارتنا وستجديننى تحت أمرك ..

ومن وقتها تجاهلته تجاهلا كاملا وكان ذلك قبيل انتقاله الى السيدة الذى مضئ عليه ما يقسارب العام . اليوم تدور أفكاره حول ست آمنة ، ويستعيد ذكرياتها بحرارة بلغت حد الهوس . انصهرت تلك الأفكار والذكريات فى رأسه وهو ماض الى روض الفرج . أجل بلغ مسكنه القديم فى الوقت الذى كان ينتظر فيه أن يكون فى القهوة . وضغط على جرس الباب وقلبه يغوص فى الأعماق . وكم ذهلت ست آمنة عندما رأته أمامها كآخر شىء كانت تتوقعه ..

ــ فؤاد افندى !

حرك رأسه بالايجاب دون أن ينبس .

ــ خير ان شاء الله !

ثم تنحت عن الباب وهى تدعوه الى الدخول . وجد نفسه فى حجرة استقبال صغيرة معبقة بعبير ورد فى زهرية على قائم معدنى طويل فى الركن . وغابت عنه وقتا ثم عادت آخذة زينتها ملتفة فى روب أبيض يذكر بفستان العرس . ولم تقتصد فى



وكم ذهلت ست آمنـــة عندما رأته
أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ...

اعلان اهتمامها بالزيارة مرددة « خير ان شاء الله » فطار من دماغه جميع ما أعده من قول ، ولكنه شعر بأنه مطالب بتفسير حضوره فقال :

ــ كنت ماراً من هنا فقلت يجب أن أزور ست آمنة ! .

ابتسمت المرأة وهى تتمتم « خطوة عزيزة » ثم وهى تضحك :

ــ ولكنك لم تكن تحب زيارتنا .. ؟ !

فاحمر وجهه وقال كالمعتذر :

ــ الواقع أن الظروف ..

وتوقف لا يدرى ماذا يقول . ثم ابتسم ابتسامة دلت على أنه يسترد توازنه وقال :

ــ قلت مرة ان لديك مشكلة ..

فضحكت المرأة ضحكة عالية . وتبادلا نظرات باسمة فواتته شجاعة عظيمة فنهض ليجلس الى جانبها على كنبة واحدة . ومد يده الى يدها ولكنها سحبتها برقة وهى تقول :

ــ الظاهر أنك لم تفهمنى على حقيقتى يا فؤاد افندى ..

لهجة جادة صدمت قلبه فانكمش . وعادت تقول :

ــ لست كما تتصور ، أنت قلت لنفسك آمنة أرملة ، وقد دعتنى مرة الى شقتها ، لابد أن تكون ...

وهتف بحماس يغطى به فتوره وفشله :

ــ معاذ الله .. معاذ الله ..

فحدجته بنظرة جريئة وسألته :

ـــ اذن ماذا تريد ؟

آه .. لم يتوقع هذا . خاب سعيك حقا !

ـــ يجب أن تعلم أننى امرأة شريفة ، وتصرف بعد ذلك كما يحلو لك !

رجع وهو يقول لنفسه ان الأمر ليس بالبساطة التى حلم بها . ومع ذلك فقد شدت على يده وهى تودعه وأعربت له عن مشاعر طيبة جدا ، وقالت انها تنتظر زيارة أخرى بل وثالثة ورابعة !. واضح جدا ما تريد . وحن بكل قواه الى عبير الورد ثم اعترف بأنه فقد عقله . ووجد فوزية تعانى أزمة من أزمات مرضها فتضاعف همه . وتذكر الأبناء والأحفاد فتكدر لحد المرارة . وتوكد لديه أنه لن يستطيع مواصلة الحياة فى هذه الدوامة .

وفى خلال شهر من الزيارة الغريبة تزوج فؤاد أبو كبير من ست آمنة فى تكتم تام .

ولم يستطع بعد ذلك أن يواجه أسرته بالحقيقة فكتب الى ابنه الدكتور خطابا مسهبا أشبه بالاعتراف ، مؤكدا فيه أنه لن يتخلى عن واجباته نحو أمه . وأقام فى مسكن آمنة فى بيته القديم . وتوقع أن يتصل به ابنه أو احدى بناته ولكن شيئا من هذا لم يحدث حتى خيل اليه أنه انتقل الى عالم آخر ، وجعل يتخيل وقع المفاجأة فى أسرته بذهول ، ولكنه طرح كل شىء جانبا وسلم نفسه للحب .

وبعد مرور ستة أشهر كتب فؤاد أبو كبير خطابا آخر الى

ابنه الدكتور . أخبره فيه بأنه مريض ودعاه الى مقابلته . وهال الدكتور أن يجد أباه طريح الفراش ، هيكلا عظميا مكسوا بجلد ذابل ، ونظرة الموت تطل من محجريه . هاله المنظر حقا فبهت ، ولما رآه أبوه اغرورقت عيناه فانكب الشاب على يده المعروقة التى ضرب لونها الى السواد يقبلها ويبكي . وجلست آمنة صامتة طيلة العناق والبكاء ثم قالت :

ـــ زاره ثلاثة أطباء !

ولكن الرجل قال :

ـــ أريد أن أرقد هناك ..

فقالت المرأة وهى تحول وجهها جانبا :

ـــ علم الله أنى لم أقصر فى خدمته ولكن المهم هو راحته فاذا شاء ذهب ....

عاد فؤاد أبو كبير الى فراشه القديم هيكلا عظميا مكسوا بجلد ذابل ونظرة الموت تطل من محجريه . وأحاطت به أسرته ولكنه استغرق فى النوم أكثر الوقت . وفى لحظات اليقظة كان ينقل بينهم عينيه صامتا أو ينادى اسما بلسان ثقيل وصوت شخص آخر . ولم يتحسن ولكنه دخل طورا جديدا يتسم بالغرابة . ومرة فتح عينيه وكان ابنه جالسا بجوار الفراش وحده فتساءل باهتمام :

ـــ ماذا حدث ؟

فسأله الشاب عن حاله فتأوه قائلا :

ـــ الظاهر أنى ضعيف جدا .. ولكنى لا أدرى ..

فسأله بقلق :

ــ لا تدرى ماذا ؟

ــ ماذا ؟ ! ، نعم ماذا ؟ ، ولكن لم ؟ ، هذه هى النقطة ..

وساد الصمت مليا ثم استدرك قائلا :

ــ لذلك لا أستطيع أن أقطع برأى ، شقى أم سعيد ؟!

وأشار اليه كأنما سيفضى اليه بسر لا يريد أن يطلع عليه أحد فقرب الشاب وجهه منه فقال :

ــ عرفت كل شىء ، كل شىء ، حتى الهدف الحقيقى ..

ثم بدرجة أدنى من الانخفاض :

ــ ورغم التصميم على عدم النسيان نسيت ، حقائق مذهلة ولكن ما هى ؟!

وألح ابنه عليه أن يستريح ولكنه عاد يقول :

ــ حقائق هائلة مذهلة ، ولكنها ضاعت جميعا ...

وأغمض عينيه اعياء ثم غمغم :

ــ كم أود أن أتذكر ولو قليلا كى أموت مطمئنا ... !


الخوف

فى تلك الفترة من أوائل القرن كان أهل الفرغانة أتعس الأحياء . كانت عطفتهم تقع بين حارة دعبس من ناحية وحارة الحلوجى من ناحية أخرى ، وكانت الحارتان متنافستين متعاديتين لا يهدأ بينهما نزاع ، وقد عرف سكانهما بالشراسة والغلظة والعدوان ، وتسليتهم الأولى كانت العبث بالقوانين والناس .

وعلى عهد جعران فتوة الحلوجى والأعور فتوة دعبس اشتدت بين الحارتين العداوة وسالت الدماء وتعدد نشوب المعارك فى الطرقات والجبل .

وتساءل أهل الفرغانة فى جزع وما ذنبنا ونحن لا من دعبس ولا من الحلوجى ؟! . ذلك أنه ما ان تنشب معركة فى أى مكان حتى يعصف بهم الذعر فيتوارى كل بما يملك أو بنفسه وراء الأبواب ، ولم يكن من النادر أن يشتبك الخصمان فوق أرض الفرغانة نفسها ، وهنالك ينعق غراب الخراب فتنقلب العربات وتتحطم السلال وينفجر الصوات ويصاب الأبرياء بلا حساب حتى أمست الحياة فى العطفة شرا لا يطاق وفاقت خسائرهم أصحاب النزاع أنفسهم وكره الحياة منهم حتى السعداء . ويوما استغاثوا برجال الدين فبذل هؤلاء أطيب ما عندهم من مسعى

حتى اتفق العدوّان على تجنيب الفرغانة ويلات معاركهم . وكان يوم عظيم أرخت به الفرغانة لطمأنينتها ، ولكن أية طمأنينة ؟... لقد كلفتهم ما يطيقون وما لا يطيقون من حسن السلوك وطيب المجاملة والحرص على الحياد فى المعـاملة حتى ضاعت فى ذلك أموال وابتذلت كرامات . وكلما فاض بهم الهمّ فأوشكوا على التمرد ذكروا الزمان الأول بمآسيه فازدردوا الألم صابرين ، ولكنهم رغم ذلك كله نعموا بفترة سلام نسبى لم يعرفوها من قبل .

حتى نزلت الى الحارة نعيمة بنت عم الليثى بياع الكبدة ..

فعندما ضعف بصر العجوز حتى لم يعد يفرق بين النكلة والمليم اصطحب معه نعيمة لتعاونه فى عمله . نزلت الى العطفة وهى فى مطلع سن الزواج . وتصدت للمعاملة فى جلباب غطاها من العنق الى الكعبين ولكنه وشى بقوام معتدل ونمت التصاقاته العفوية بأجزاء الجسد عن بضاضة ، الى امتياز الوجه باستدارة ريانة فى لون الدوم الرائق ، وعينين لوزيتين فى لون الشهد المصفى تعبث فى نظرتهما حيوية شباب مستجيبة فى سـذاجة للاعجاب . ورمقتها عيون الشباب باهتمام ، وانجذبوا الى فرن الكبدة القائمة فوق عربة اليد كما ينجذب الذباب الى السكر . وما لبث أن قرأ عم الليثى العجوز الفاتحة مع شاب بياع بطاطة يدعى الحملى . وانتظرت الناس الأفراح ولكنهم عندما اجتمعوا مساء يوم بقهوة التوتة ــ وقد سميت كذلك لوقوعها تحت

أفرع شجرة توت ــ قـرءوا الكدر واضحا فى وجه الرجل الذابل . وسأله صاحب القهوة :

ــ ما لك يا ليثى كفى الله الشر ؟

فأجاب العجوز متنهدا :

ــ المنحوس يجد العظم فى الكبدة !

تطلعت اليه الرءوس من فوق الجـوَز وأقداح القرفة والشاى فقال باقتضاب ذى معنى :

ــ نعيمة .. !

ــ ما لها ؟ .. حصل من الحملى عيب ؟

فهز الرجل رأسه المعمم بلاسة منقطة وقال :

ــ لا دخل للحملى فى همى ولكن قابلنى الأعور فتوة دعبس بلطف غريب ثم قال لى انه يطلب القرب فى نعيمة !

تجلى الاهتمام فى الأعين مشوبا بانزعاج ثم سـأله سائق كارو :

ــ وماذا قلت له ؟

ــ ارتبكت .. وبكل صعوبة قلت له ان فاتحتها مقروءة مع الحملى فصاح : الأعور يجيئك بنفسـه تقول له الحملى ؟ ! ، الحقيقة أنا انذعرت ..

ــ ثم ؟ !

فامتلأت غضون وجهه بالقرف وهو يقول :

ــ مددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت معه الفاتحة !

ــ وفاتحة الحملى ؟

ــ قابلته ، واعترفت له بوكستى فحزن الولد الطيب ولكنه لم يتكلم ثم ذهب ..

تبادلوا النظرات فى صمت ارتفعت فى رحابه قرقرة الجوز فقرر صاحب القهوة أن يخفف عن العجوز الألم فقال بأريحية :

ــ لا لوم عليك ، أى واحـد منا فى مكانك يتصرف كما تصرفت ، صلى على الهادى وهون عليك !

فضرب العجوز حجره بقبضته هاتفا :

ــ ولكن المصيبة لم تقف عند هذا الحد !

فتساءل صاحب القهوة ذاهلا :

ــ وهل يوجد ما هو شر من ذلك ؟

ــ بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوة الحلوجى أمامى !

ــ يا ساتر يا رب ، وماذا أراد ؟

ــ نعيمة أيضا !

وضرب صاحب القهوة كفا بكف ثم رفع رأسه الى سقف القهوة يخاطب السماء فقال العجوز :

ــ اعترض سبيلى كالقضاء والقدر ، لم أدر ماذا أقول ولا كيف أتصرف ، ثم اضطررت أن اعترف له بفاتحة الأعور !

ــ يا أرض احفظى ما عليك ..

ــ قال لى يا مخرف .. يا أعمى .. أقول لك جعران تقول لى الأعور ؟ ! ... الحقيقة أنا انذعرت ... ومددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت الفاتحة !



قال لى يا مخرف .. يا اعمى .. أقول
لك جعفـــران تقول لى الأعور ؟ ! . . .

ـ وفاتحة الأعور ؟

فقال العجوز فى انهيار تام :

ـ هذه هى المصيبة فأغيثونى ..

وسرعان ما أدركوا أن المصيبة انما هى مصيبة الفرغانة وأن الخراب عاد يهدد عطفتهم . وبحثوا جميعا عن حـل حتى قال مقرىء أعمى :

ـ لا يمكن أن تتزوج من الاثنين فهذا محال ، ولا يمكن أن تتزوج من واحد دون الآخر فهذا هو الموت ..

ثم خلع العمامة وحك رأسه طويلا دون أن يوفق الى اقتراح حل فقال بياع الترمس :

ـ فلتتزوج سرا من الحملى ..

فقال كثيرون فى وقت واحد :

ـ ولا أبو زيد الهلالى نفسه يمكن أن يتزوجها الآن ..

ولما أجهد التفكير رءوسهم عبثا قال المقرىء :

ـ ادعوا معى : يا كريم الألطاف نجنا مما نخاف ..

وانتبه الناس فى الصباح على حركة غريبة فى وكالة مهجورة بالعطفة . رأوا جماعة من البنائين والنجارين والعمال يعملون بهمة فى الوكالة ليعدوها لحياة جديدة . وثبتت فوق المدخل لافتة كبيرة بعنوان « نقطة الفرغانة » . وجاء عساكر وضابط فشغلوا المكان الجديد . وتجمهر الناس أمام النقطة فقال لهم عسكرى عجوز :

ـ الحكمدارية غضبانة .. ولا بد أن تنتهى الفتونة !

وقال البعض ان الله قد استجاب لدعائهم ولكن الطمأنينة لم تدخل قلوبهم . كل ما أحاط بهم أقنعهم بأن الفتونة أقوى من الحكومة . لم يروا طوال حياتهم شرطيا يتحدى فتوة على حين أن الفتوات يتحدون القانون فى كل ساعة من نهار أو من ليل . ولم ينس أحد كيف أن مأمور قسم الظاهر استعان يوما بجعران فتوة الحلوجى على تاجر مخدرات يونانى متمتع بالحماية الفرنسية عندما علم المأمور بأن اليونانى يهدده بالقتل . كيف يتأتى بعد ذلك لهذه النقطة البوليسية الصغيرة أن تقضى على الفتونة ؟!

وخرج الضابط الشاب بنجمتيه المذهبتين وشريطه الأحمر وجلس على كرسى خيزران جنب مدخل النقطة ثم أرسل شرطيا الى قهوة التوتة ليأتى له بنارجيلة . كان فى الخامسة والعشرين ، رشيق القوام ، غليظ القسمات ، ليس فيه ما يلفت النظر سوى رأس كبير مفلفل الشعر كأنه كتلة صوانية مصفحة . نظر الى المتجمهرين وقال ببساطة غريبة :

ـ محسوبكم عثمان الجلالى .. لا تخافوا .. الحكومة معكم ..

فتوددوا اليه بابتسامة بلهاء ولم ينبس أحد بكلمة فعاد يقول وهو يتناول خرطوم النارجيلة :

ـ عيب أن يعيش الرجال كالنسوان ، لا تمكنوا أحدا منكم ...

ولما لم يجد بادرة تشجيع واحدة قال بشىء من الحدة دل على نفاد صبره :

ـ ومن يتستر على مجرم سأعامله كمجرم ..

ورمشت أعينهم فى ارتبــاك ثم تفرقوا تبــاعا ، كل يلوذ بالســـلامة . وتجول الضـــابط فى الحى مستطلعا يتبعه بعض العساكر . طاف بدعبس كما طاف بالحلوجى . وطوقته الأبصار حيثما ذهب ، من النوافذ والمقاهى والأركان ارتطمت به نظرات التوجس والسخرية والحنق . ومر بالأعــور فتجاهله ، ومر بجعران فتجاهله ثم أطلق ضحكة مجلجلة . ولبث عثمان هادئا طيلة الوقت ..

وأدرك الجميع أنه يستعرض هيبة الحكومة فعزم جعران على أن يدهمه بالرد الحاسم . وعند أصيل اليوم نفسه نشب عراك دام بين الحلوجى ودعبس فى خلاء الدراســـة انتشرت أنباؤه كاللهب فى وكالة خشب . وارتعد قلب الليثى الضعيف وسابت مفاصل الفرغانة . ونصـــح كثيرون الأب بأن يزوج ابنته من جعران فهو الأقوى على أى حال ، وخراب أهون من خراب .

وفى صباح اليوم التالى ظهر الضابط فى الحارة مرتديا جلبابا كسائر أهل العطفة !. لم يصدق الناس أعينهم أول الأمر ولكن هويته تأكدت بصوته المعروف حين ارتفع قائلا :

— من كان يخشى البــدلة فقد خلعتها والآن فليأت الىّ الفتوات ان كانوا حقا رجالا !

وابتعد عن النقطة وحده دون أن يسمح لعسكرى واحد بأن يتبعه ، ولكن تبعه الذاهلون من الرجال والنساء والصبية . ومضى الى الحلوجى بثبات لم يعرف عن أحد قبله حتى وقف

أمام قهوة بندق حيث يوجد جعران بين صحبه وتابعيه . وقال عثمان بهدوء ولكن بوجه تتطاير من عبوسته النذر :

ــ أمس تحديتم الحكومة ، ها أنا بينكم وحــدى أطالب بنصيبى من التحدى فالجدع منكم يتقدم !

ورقص شاب يدعى عنبة ببطنه فى وقاحة مزرية وهو على بعد أذرع من الضابط فمال هذا نحوه بغتة ولكمه فى بطنه لكمة شديدة سقط على أثرها بلا حــراك . وذهل الجميع لجرأة لم يتوقعها أحد على حين تراجع المتفرجون عن منطقة الزلازل . واستقرت الأبصار على جعران وهو متربع على أريكة متلفعا بعباءته . ولأول مرة نظر جعران فى وجه الضابط عثمان ، ثم قال :

ــ أنت غدرت بصاحب لى بلا سبب ..

فصاح عثمان :

ــ استحق التأديب فأدبته وسيأتى دورك فى الحال ..

قال جعران بوجه مشوه بالندوب :

ــ أنت شباب .. اذهب من أجل خاطر أهلك ..

فصاح عثمان :

ــ قم ان كنت رجلا وتقدم ...

ولم يتحرك جعران اســتهزاء فاقترب عثمان منه خطوات وسرعان ما تكتل الأعوان حول رجلهم وأمامه فقال الضابط ساخرا :

ــ أرأيت أنك تختبىء وراء جدار من الأنذال ؟

وهتف جعران فى رجاله :

ــ ابعدوا ..

فتفرقوا بسرعة كالحمام فى أعقاب طلقة . ووثب جعران الى الأرض وكان ربعة مدمج الجسد غليظ الرقبة ، ثم تساءل :

ــ أين عساكرك ؟

فقال الضابط بحنق :

ــ سأضربكم بالطريقة التى تضربون بها الناس ..

وبمفاجأة صاعقة لطم جعــران لطمة مهينة فصرخ هذا من الغضب وانقض عليه فاشتبكا فى صراع مميت . تلك كانت لحظة مذهلة لم تنسها الحارة حتى اليوم . كالصراع الذى يروى عن الفيل والنمر . وكانت فاصلة فى تاريخها كله فتغير مجراه الى الأبد . وقرأ كل فتوة من أعوان جعران بل ومن رجال الأعور مصيره فيها .

وأراد جعران بكل وحشية فى دمه أن يعصر عثمان بين ذراعيه الحديديتين ولكن الضابط اعتمــد على خفة الحركة واللكمات وهو فن لم يعرفه جعران أبدا . وأصابت اللكمات فكى عدوه وصــدره وبطنه وأنفــه المعوج فصرخ فى جنون الغضب :

ــ ملعون الجحيم ان لم أشرب من دمك !

وصاح الرجال الذين منعتهم تقــاليدهم من الاشتراك فى المعركة :

ــ الموت .. الموت .. يا معلم ..

وارتفع الصياح والصراخ والصوات . وتجمهر الحى كله تحت القبو الفاصـــل بين الحلوجى والفرغانة . ووقفت نعيمة ترتجف من الانفعال ، قابضة على يد أبيها بعصبية ، وهى تصف له ما يقع مما عجزت عيناه الكليلتان عن رؤيته .

ودارَ رأس جعران بالضربات المنهالة فبطؤت حركته وتراخت ذراعاه وشخصت عيناه الى الغيب . وهتفت نعيمة بفرح :

ــ وقع الوحش على ركبتيه ..

أجل قد وقع . ثم سجد حتى انغرز رأسه فى التراب فتقوس كالدب ، ثم تهاوى على جنبـــه .. وارتفعت عشرات النبابيت فهتف عثمان وهو من التعب فى نهاية :

ــ يا نسوان !

فتراجعوا خجلين وبعضهم يصيح فى وجهه :

ــ قريبا سيقرءون على روحك الفاتحة .. !

وجعل الضابط يتجول فى الأحياء بجلبابه البلدى وأسطورته الغريبة تفرش له الرمل حيث ذهب . وكلما صادف فتوة كبيرا أو صغيرا اعترض سبيله وطالبه بأن يقول على مسمع من الناس « أنا مرة » فان تردد انقض عليه وسوى به الأرض . وفى كل يوم كانت له معارك يخوضها متحديا ويخرج منها منتصرا . ولم تمض أشهر قلائل حتى رحل الفتوات عن دعبس والحلوجى فلم يبق الا الشيوخ والنساء والصغار أو من غض الطرف وتبرأ من الفتونة . وشعر الضعفاء بأنهم يولدون من جـــديد ، ورمقوا الضابط بعين الاكبار والمحبة .

ومرض عم الليثى وفقد بصره تماما فقعد فى فراشه ، وسرحت نعيمة بعربة الكبدة وحدها . وازدادت مع الأيام ملاحة ونضجا الى ما كسبت من صيت لتنافس جعران والأعور عليها فى الماضى القريب . وبين لحظة وأخرى انتظرت العطفة أن تزف الى عريس مناسب . واذا بصبى القهوة « حنـــدس » يهمس ذات ليـــلة للساهرين :

ــ أرأيتم كيف ينظر الضابط الى نعيمة ؟

ولم يكن أحد لاحظ شيئا فعاد يقول :

ــ انه يأكلها بعينيه ..

ومضى كل يتابع نعيمة من زاويته . انتبهوا الى أنها تعسكر بعربتها عند الجدار المقـــابل للنقطة . وأن عثمان يسترق اليها النظرات باهتمام لا يخفى على راء . وأن عينيه ترتادان مواضع الحسن فى وجهها وجســـدها . وأن نعيمة تلون نبراتها ــ عند النداء ــ بالدلال . وفى لفتاتها وسكناتها عند المعـــاملة جرت مناورات الأنوثة المتصدية لرجل يستحق الاهتمام . وقال قائل منهم فى سهرة تالية :

ــ هو يأكلها وهى تود أن تؤكل ..

فتمتم صاحب القهوة :

ــ وعم الليثى المسكين ؟ !

فقال بياع الترمس :

ــ من يدرى ؟ ! .. ربما طلب من العجوز القرب !

فقال المقرىء الأعمى :

ـــ ليس شىء على الله بكثير ..

ولكن نطقت أعينهم بمدى يأسهم . وقال شاب :

ـــ هو أقوى من جعران والأعور معا ويا ويل من يقول بم !

ووقفت نعيمة فى ضـــوء القمر وهى تراجع حساب اليوم وتغنى :

أنـــا قبـــله · كنت هبْله

ولكن تجنبها الشبان حبا فى السلامة ، وقالوا لا تغنى بنت هكذا الا للعشق !

ولم تمض ليال حتى عاد حندس يقول :

ـــ كل شىء وضح ، رأيتهما أمس عند خلاء شبرا !

فصاح به صاحب القهوة :

ـــ اتق الله !

ـــ الحمد لله ! ، كانت واقفة أمام العربة وكان الضابط يأكل الكبدة كالوحش ..

فقال المقرىء :

ـــ شىء طبيعى ! ، كما يحدث للجميع !

فهتف حندس :

ـــ ولكن عند خلاء شبرا ، ألا تسمع ياسيدنا ؟ ، وترحمت على عم الليثى ..

ونفذ الحزن الى الاعماق . ثم قال صاحب القهوة :

ـــ أبوها عاجز ، ولكنه شرف الحارة كلها !

فقال بياع الترمس :

ـــ الحارة أعجز من أن تدافع عن شرفها !

وتجهمت الوجـــوه بالخزى ، وعجبوا كيف يجىء ذلك من الرجل الذى وهبهم السلام ، ولم يذوقوا للزنجبيل ولا للتبغ طعما . وتساءل شاب :

ـــ والعمل ؟

فقال المقرىء الأعمى :

ـــ قل « أنا مره » !

واتبهت نعيمة الى الصـــمت الذى يطوقها والازدراء . وجعلت تتودد الى هذا وذاك لتختبر شكوكها فارتطمت بجدار من الحنق . ولم تخش اعتداء عليها وفتوة الفتوات قائم بمجلسه أمام النقطة ولكنهـــا عانت وحدة غريبة . ورفعت رأسها فى استكبار ولكن نظرة عينيها العسليتين خلت من الروح كورقة ذابلة . ولأقل احتكـــاك عابر كانت تنفجر غاضـــبة وتمسك بالتلابيب . وتسب وتلعن وتصيح فى وجه ضحيتها « أنا أشرف من أمك » . وتربع الضـــابط على الكرسى الخـــيزران يدخن النارجيلة ويمد ساقيه حتى منتصف الطريق وقد امتلأ جسمه وانتفخ كرشه وتجلت فى عينيه نظرة متعالية ولكن خمد حماسه حتى بدا أن نعيمة نفسها لم تعد توقظ مشاعره . والذين لم ينسوا فضله رغم كل شىء تنهدوا قائلين :

ـــ المكتوب .. مكتوب !

ولم تعد نعيمة تمكث فى العطفة الا اقصر وقت ممكن ثم

تسرح فى الأحياء ولاتعود الا مع الليل . ولأنها ممتعضة دائما ومكفهرة ومتوثبة للشجار دائما فقد قست ملامحها وبردت نظرتها وطبعت بطابع الجفـــاف فركضت الشيخوخة نحوها بلا رحمة ...

وحتى سحرها الذى أطاح برأس الضابط قد بطل أو هذا ما بدا للأعين المستطلعة فتهامست به أركان التوتة ..

وفى لحظات الصمت ترتفع قرقرة النارجيلة فى العطفة الخابية الضوء كسلسلة من الضحكات الساخرة ...

الرمـــاد

حسن السمَّاوى شخص يثير الحنق . ولا يشذ عن هــذا الرأى فيه أحد فى ادارة الحسابات بشركتنا . وهو قصير القامة كصبى ولكنه عريض الصـــدر كمصارع ، ولونه أسمر داكن مشوب بصفرة ، ومن عينيه الصغيرتين تطل نظرة غير مأمونة ، وفضلا عن ذلك كله فهو قريب المدير العام . وطبيعى أن نشعر بأنه عين علينا ، وألا نرتاح اليه لخشونة طبعه ، وأن نضيق به لتمتعه بكافة أنواع المكافآت التشجيعية بلا جدارة ، غير أنه يحظى بالمجاملات فى خير أحوالها . وكان مولعا بسحَر الكاتبة على الآلة الكاتبة . ظريف جدا أن ترى جلفا وهو يحب ، أن يجود وجهه المنفر بابتسامة رقيقة ، أن يرق صوته الغليظ وهو يهمس لها بكتابة ميزان الصرف اليومى ، وكنا نتــابع ذلك باهتمام ما بعده اهتمام . ومع أننا تمنينا أن يعذبه الحب لعله يهذبه الا أننا أشفقنا من أن يفوز حقا بسحر ، الجميلة الرقيقة الواعدة بكل خير فى مجالى الأنوثة والعمل . وثمة لحظات لا يكون بينهما حديث مما عليه العمل فيسترق اليها نظرات حمراء من فوق استمارات الصرف ، وقد يتصبب عرقا ، أو ينال منه الاعياء

فيرتد عنها بنظرة خامدة . ويوما همس جارى فى أذنى بنبرة ذات مغزى :

ــ آه لو رأيت سحَر وهى تبتسم خفية !

خطفت نظرة من سحَر وهى عاكفة على الآلة الكاتبة وأصابعها المخضوبة الأظافر تعزف عليها بنشاط ، ثم قلت متأسفا :

ــ نعمة لا يستحقها !

فهز رأسه نفيا وقال :

ــ ليس هذا ، ولكنه برهان !

وعجبت . برهان موظف جديد التحق بالخدمة منذ أسبوعين فقط ، شاب ممتاز حقا ، ولكن كيف أحرز هذا النجاح فى هذه الفترة القصيرة ؟ ! . ورحت أراقبهما فى لحظات الفراغ حتى لمحت ابتسامة يتبادلانها لا شك فى معناها . وتوقعت أحداثا . وانتقل الخبر فى سرية تامة من شخص لآخر حتى استقر عند رئيسنا الكهل الذى يدنو من سن المعاش . ولم يعد الأمر تسلية فحسن السمَّاوى ليس جلفا فقط ، ولا قريبا للمدير فحسب ، ولكنه أيضا من أقاصى الصعيد ، من أرض عرفت بأنها ترتوى بدماء البشر ، فذهبنا فى التخمين كل مذهب .

ومرة اهتزت الادارة بصوت حسن السمَّاوى وهو يرتفع بحدة كأسنان المنشار قائلا :

ــ الحكاية أن عقلك ليس فى رأسك !

واتجهت صوبه الأنظار من جميع الأركان فاذا به متحفزا

فوق مقعده ، يرمى بنظرة حاقدة برهان الواقف أمام مكتبه . وقال الأخير بصوت المعتذر :

ـــ هفوة لا خطورة لها ، والاستمارة لم ترسـل بعد الى المراجعة !

فصاح السمّاوى :

ـــ هفوة أو جريمة هذا تقديرى أنا لا أنت ، الحقيقة أن عقلك ليس فى رأسك !

ورمى بالاستمارة بصورة تدعو الى الاستفزاز ثم صاح بالشاب وهو راجع الى مكتبه :

ـــ هنا شركة لا تكية !

اصفر وجه برهان من التأثر ومضى يعيد تحرير الاستمارة لكن أثر الهجمة الحاقدة انعكس علىَ سحَر بدرجة أشد فيما خيل الى . وضح تماما أن سرعتها المألوفة فى الكتابة تعثرت ، وأنها تمعن النظر فى الكلمات ولكنها لا تقـرأ شيئا . ووضح كذلك أن السمّاوى رأى شـيئا رابه أو حطم آماله . ولعله ضبطه قبيل انفجاره بثوان فهو لا يكتم انفعالا ، ولكن هل يظن أنه بالغ مراده بالقوة ؟ ! . وأخذ يطاردها فى الطريق كما قال الرواة . ورئى وهو يحادثها فى محطـة الأوتوبيس . ولم ندر بطبيعة الحال كيف ينتهى عناده . وتعلقنا جميعا بأمل واحد آمنا بأن به وحده تتحقق العدالة الالهية فى ادارتنا . وقال جارى :

ـــ ألم تعلم ؟ ، لقـد قابل عمها وهو ولى أمرها ليطلب يدها ..

سألته بلهفة :

ــ والنتيجة ؟

ــ الاعتذار ..

ثم مستدركا بفرحة غير خافية :

ــ فشل فى البيت بعد فشل فى الطريق .. ؟

وبات غرام السمّاوى مشكلة ادارتنا . وزاد طبعه سوءا على سوء . عامل برهان معاملة شاذة اتسمت بالاستفزاز والتحدى والتربص حتى آمن الشاب بأنه لا مستقبل له فى شركتنا . أما معاملته لسحَر فجرت على أسلوب مضطرب مذبذب ، فتارة يعاملها بفظاظة ويغلظ لها فى القول ، وتارة يستميلها برقة وعطف ، ثم يعود الى الأولى ، ولا يستقر بحال على حال . وكلما زاملت الصبر أحرقه الحقد وخنقه اليأس . وقال مرة دون مناسبة أذكرها :

ــ عندنا تعامل المرأة كالحيوان ولذلك يقال عنا اننا خير من يفهم النساء !

ولم تسكت سحَر فقال بسخرية :

ــ هذا عندكم !

وضحكنا جميعا حتى هو ابتسم ابتسامة صفراء ولكنه عاد يقول :

ــ صدقونى اننا نعاملها بما تستحق !

وعرف أن برهان يسعى الى الانتقال الى شركة أخرى وأنه من غير المستبعد أن تمضى سحَر فى أثره . وذات صباح لاحظنا

أن برهان لم يحضر . ومضى النهار دون أن تتلقى بلاغا باعتذاره كالمتبع . وكذلك مضى اليوم الثانى . وفى اليوم الثالث جاءتنا رسالة تنبئنا بوجوده فى المستشفى للعلاج حيث قد وقع عليه اعتداء أثيم . وزرناه جميعا . وجدناه فى جناح الجراحة مجبس الذراع والساق ملفوفا بالأربطة البيضاء لا يبدو منه الا عينان خابيتان . وسرعان ما أمرنا بمغادرة الحجرة فلبثنا مع شقيقه فى استراحة وقد تملكنا شعور بالرهبة والخطورة .

ولم يكن أدلى بأقواله بعد ولكن شقيقه أخبرنا بأن مجهولين اعتدوا عليه بالعصى وهو راجع الى بيته ليلا ثم لاذوا بالفرار دون أن يتعرف على شخصياتهم أحد . والراجح أنهم كانوا من حملة الجلابيب وأن الاعتداء والهرب كانا مفاجأة صاعقة وأن الظلام كان كثيفا آخر الليل ، هكذا قرر الشهود القلائل . ومع أن أفكارنا تلاقت عند ظن واحد الا أن أحدا لم يجهر به بسبب وجود حسن السمّاوى بيننا . وقد علق على ما سمع قائلا :

ــ هذه حال من الفوضى لم يسمع عنها من قبل ..

ثم سأل شقيق برهان :

ــ أله أعداء ؟

فنفى الرجل أنه يعرف له أعداء وأمل فى مزيد من الوضوح عندما يستطيع برهان أن يدلى بأقواله . وعدنا جميعا واجمين وقد احمرت من البكاء عينا سحَر .

ولما أدلى برهان بأقواله استدعى حسن السمّاوى الى

التحقيق . وبدا أنه استبشع التهمة بكل قوة . واستمرت التحريات طويلا ولكنها لم تسفر عن شيء ، وكان على برهان أن يبقى فى المستشفى طيلة شهرين أو أكثر . وسألنى جارى ممتعضا :

ــ ما جدوى هذه الحياة ؟

وحل بادارتنا وجوم كئيب مشحون بالسخط الصامت ، أكده باستمرار وجود سحر بيننا . وبطريقة أو بأخرى أعلنت وجوهنا وألوان سلوكنا عن باطننا . ولم نخرج فى معاملته عن حد الأدب والمجاملة ولكن تجهم أرواحنا حاصره بغضب بشرى رهيب . ونزل عن كبريائه فجعل يباسطنا فى الحديث أو يضاحكنا لأوهى مناسبة كأنما ليسبر مدى ظنونه ومخاوفه فكنا نجاريه فى تكلف وسرعان ما يسيطر الصمت . ولم يعد يتحملنا فهتف مرة دون مناسبة ظاهرة :

ــ أنا لا أخشى أحدا ولكنكم مخطئون !

وتساءل رئيسنا فى دهشة :

ــ ماذا تقصد يا سيد حسن ؟

فقال بعصبية :

ــ أنت تعلم وهم يعلمون ولكنى لا أخشى أحدا !

وتضاعف حنقنا عليه وتمنى بعضنا أن يراه جثة هامدة . وبدوره قاطعنا ولكنه كان اذا اشتبك معنا فى حديث بسبب العمل تحدانا بجده أو بسخريته . وبمرور الوقت بدا كأنه قدر على تجاهل عواطفنا . بل وعاد الى التقرب من سحر بالابتسامة

الكريهة أو الكلمة رغم أنها كانت تتصدى له فى نفور متصلب كالديك المتحفز . ونجح فى امتلاك زمام نفسه وجرت حياته بصورة طبيعية شهدت له بقوة الأعصاب . وأخبرنى جارى — نقلا عن سحَر نفسها — أنه قال لها انه برىء مما تظن ، وأن نقطة ضعفه الوحيدة أنه يحبها وأنه مصمم على أن يتزوج منها !. والظاهر أنه لم يظفر بأية استجابة اذ صبَّحنا يوما بأن سألنا :

— هل قرأتم الحكاية ؟

وراح يقرأ فى الجريدة نبأ حادثة وقعت فى المنيرة اذ قتل شاب جارته بعد أن يئس من حبها ! . وكنا قرأنا الخبر ولكن اعادته على أسماعنا بلهجته الصعيدية المتشفية أثارتنا الى أبعد الحدود . أدركنا أن افلاته من التهمة زاده على عكس المتوقع فجورا ، وأنه من طبيعة شرسة لا تقف عند حد . ماذا يقصد بتلاوته ؟ . ومتى تدركه العدالة التى لا تتصور أن تهمل أحدا من الطغاة ؟ . وقلت معلقا على الحادثة :

— أهلك الفتاة وأهلك نفسه !

وقال رئيسنا الكهل :

— انى أعجب كيف يزهق انسان روحا بشريا ؟!

فأجاب السمّاوى متهكما :

— ذلك أنك لم تعرف الحب .. !

واسترقت الى سحر نظرة فرأيتها منكبة على العمل ولكن بوجه مكفهر . وكأنى أدركت للصواعق والزلازل والبراكين معنى جديدا لأول مرة . ورفع الغطاء عن وجه زميلنا برهان

معلنا عن منظر لا ينسى . تحطم عرنين الأنف ، واختفت قطعة من شفته السفلى عند الثنيتين ، وتركت الخياطة الطبية بوجنته اليسرى طابعا كأثر الاحتراق ، وفى كلمة ضاع بهاء شبابه كأن لم يكن . وعاد الى عمله محطم النفس فملأ قلوبنا بالشجن . وما عتم أن غادرنا الى عمل آخر . ولبث حسن مصراً على هدفه لا يثنيه عنه صـد أو يأس . وكثيرا ما كانت سـحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة وهى تتسلم منه رسائل ومذكرات :

ـ لا تحدثنى هكذا من فضلك !

والتفتنا نحوهما بوجوه غير متسامحة فتراجع قائلا :

ـ آسف ، أنت لا تفهمين قصدى !

فمضت عنه وهى تقول بتحد :

ـ أنا لا أخشاك .. لا أخشى شيئا !

ولكن شيئا لم يكن ليصرفه عن التعلق بها . وتساءلنا بقلق هل تفاجأ بما ليس فى الحسبان ؟ وناقشنا الموضوع حول مائدة الغداء بمنزل رئيسنا الكهل . سألت :

ـ هل يقدم على قتل الفتاة ؟

فأجاب جارى :

ـ انه لا يتورع عن شىء ..

واذا بزميل يقول :

ـ أخشى أن ينتهى بها النضال الى القبول !

ـ القبول ؟ !



.. وكثيرا ما كانت سحَر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة وهى تتسلم منه رسائل ومذكرات : لا تحدثنى هكذا من فضلك !!

ـــ لم لا ، انه لا يريد أن ينهزم والمرأة كما يقولون لغز !
وسألت رئيسنا عن رأيه فأجاب :
ـــ انى أومن بالله ويتجدد ايمانى به عند كل صلاة ..
فسألته :
ـــ وهذه الفوضى ؟
فكان جوابه أن ابتسم دون أن ينبس ثم قدم لى تفاحة !
وبدا حسن السمّاوى فيما تلا ذلك من أيام هادئا ، أو راضيا ، أو مستسلما ، كأنما قد انتهى من نضـــاله الى خاتمة .
ويوما قال لنا :
ـــ حضراتكم مدعوون لحفل خطوبتى !
ودق قلبى . ولا شك أن سؤالا واحدا محيرا دار برءوس الجميع . وجعلنا نختلس النظرات الى سحَر ونعانى حزنا كاليأس من مصير الانســـان . والتفت السمّاوى نحو ســـحَر أيضا ، وابتسم ، ثم هز رأسه كالمتسائل ، فابتسمت بدورها وقالت :
ـــ بكل سرور ولكن أرجو أن تدعو برهان أيضا ليوصلنى عند نهاية الحفل الى البيت ..
وتنهدت قلوبنا فى ارتياح عميق ...
واختلست منه نظرة بعد أن تحولت عنه الأعين فرأيت الوجه الأسمر الداكن يقطر يأسا كالموت ..

الختام

علام يسرى ــ مراقب عام الوزارة ــ فى غاية من السعادة ..
استدعاه الوزير وقال له :

ــ اتخذ فورا اجراءات تعيينك وكيلا مساعدا للوزارة ....

وقام من مجلسه أمام مكتب الوزير فانحنى امتنانا ورأسه يدور من الذهول ثم قال :

ــ ما أعجزنى عن الشكر ولكنى أرجو أن أكون عند حسن الظن بى ..

فقال الوزير :

ــ أنت رجل كفء ، أما سمعتك الطيبة فحقيقة أجمع الناس عليها ..

ووجد علام يسرى نفسه فى غاية من السعادة فامتلأ حبا لكل شىء ورضى عن كل شىء . وكانت له ابنة وحيده فى العشرين من عمرها ومن خريجات الجزويت ، وقد تقدم لخطبتها أخيرا قاض شاب ، وبذلك وضح تماما أن رسالته فى الحياة تتم على أكمل وجه يحلم به انسان . وجاءه مدير مكتبه بأوراق العرض ثم قال عندما هم بمغادرة الحجرة :

ــ عبد الفتاح حمام ما زال يلح فى طلب المقابلة !

فقطب المراقب العام قائلا :

ــ وقتى ضيق كما ترى ، اسأله عما يريد ، وان كان لديه طلب فحوله الى جهة الاختصاص ..

ــ ولكنه يلح فى طلب المقابلة دون ذكر أسباب ، وقد طردته أكثر من مرة من مكتبى ولكنه يعود باصرار ، ويكرر أن لديه ما يقوله لسيادتك شخصيا ..

واضطر الى أن يحدد له وقتا للمقابلة وهو كاره . وجاء عبد الفتاح حمام يسير فى خطوات متهيبة وهو غاض البصر ، وانحنى باجلال وهو يقول :

ــ صبحك الله بالسعادة يا سيادة المراقب ..

ولفت نظر المراقب بقصر قامته وبروز صدره بروزا غير طبيعى ولونه الشاحب وشعر رأسه الأسود الغزير . وسأله وهو يدارى غيظه :

ــ لماذا تصر على تضييع وقتى ؟

وتهيأ عبد الفتاح للكلام فأضاع ثوانى بارتباكه فهتف المراقب العام :

ــ متى تجود يا ترى بالكلام ؟

فاشتد ارتباك الشاب كما تجلى فى احمرار وجهه وقال بعجلة واندفاع كأنه يقذف بنفسه فى الماء فى أول تدريب يخوضه :

ــ أنا موظف ملفات الخدمة بالمستخدمين ، وقد رجعت الى

ملف سعادتك لمناسبة اعداد البيان التمهيدى للتعيين الجديد ، مبارك يا فندم ! ، الموقف أنسانى ما كان يجب أن أبدأ به ..

وازدرد ريقه متوقفا عن الكلام فتساءل المراقب العام :

ــ ألهذا تطلب مقابلتى ؟ !

ــ كلا يا فندم ، ولكننى بالرجوع الى ملف سيادتك اطلعت على شهادة الميلاد ..

آه . شهادة الميلاد ! . وانتزعه الماضى من حاضره بجذبة واحدة قاسية . ولكنه لم يصدق . وتساءل ببرود :

ــ نعم ؟

ــ اطلعت عليها فوجدت بها شيئا غير طبيعى ..

اذن هو ذلك ! . لا يمكن أن يصدق . ولكنه حقيقى كجثة مطمورة اكتشفت فجــأة . وقاوم من خلال شــعور بالاعدام فتساءل :

ــ ماذا تقصد ؟

فقال عبد الفتاح بشىء من الهدوء لأول مرة :

ــ يوجد « تحوير » فى الشهادة !

ــ لا أفهم ! ، لعله تصحيح أو شىء من هذا القبيل !؟

ــ من يدقق النظر لا يشك أنه ...

وخرقت أذنه الكلمة غير المنطوقة . وشعر بيأس كالموت . أما الآخر فقال :

ــ رأيت أن أرجع الى سيادتك قبل أن أكتب مذكرة عن الموضوع لمدير المستخدمين !

على أى حال يجب ألا ينهار أمام خصمه ! . لقد قضى عليه ولكنه يجب أن يتماسك وأن يتجلد فمن يدرى ؟!. واكتظ قلبه بالكراهية ولكن ما الحيلة ؟ . واليوم موعد اجتماع لجنة الميزانية ويجب أن يبدو كل شيء طبيعيا . وسأله :

ــ هل دققت النظر ؟

ــ نعم ! ، كان يمكن أن أكتفى بمراجعة صحيفة الأحوال ولكنى اخلاصا منى لعملى أراجع الوثائق الأصلية ، ولا أدرى كيف وقع بصرى على ...

آه انه لا يدرى كيف ! . وفاض قلبه باليأس والكراهية . لولا الترقية المنتظرة لرقدت الشهادة فى أمان حتى نهاية الرحلة الوشيكة . على أى حال لا يجوز أن ينهار أمام عينى خصمه . وسأله :

ــ وبعد ؟

ــ قلت أرجع أولا الى سيادة المراقب العام !

ــ انى أشكر لك تصرفك ولو أن ..

ودق جرس التليفون فاذا بوكيل الوزارة يطلبه فنهض منزعجا خشية أن يخونه صفاء الذهن الضرورى للمقابلة . وقال من خلال عالم مقوض الأركان :

ــ اسمع يا ابنى ، أنا الآن مشغول جدا فلنؤجل الحديث ، وعندى لجنة ميزانية بعد الظهر فموعدنا الغد ، ان أقوالك غريبة وغير مفهومة لى ألبتة فلنؤجل مناقشتها الى غد ..

وفى الطريق الى مكتب الوكيل غاب تماما عما حوله . وتطلع

الى الأمام بنظرة ذاهلة منقبا عن القوة المدمرة الساخرة . متى يغمض له جفن ؟ . وتمنى أن يتغيب عن لجنة الميزانيـة ليصفى حسابه مع معذبه ولكنه جفل من مجـرد التفكير فى ذلك . انه اعتراف خطير سيعجل بالقضاء عليه . ولكن هل انتهى حقا ؟ !

وغادر الوزارة عقب مقابلة الوكيل . استقل سيارته الأوبل التى يسوقها بنفسه وعند خروجه من باب الوزارة لمح عبد الفتاح حمـام واقفا أمام محل صـغير لبيع الفول يتنـاول سندويتش . التقت عيناهما لحظة ريثما انعطف الى الطريق . وقد خفق قلبه فى رعب حقيقى ثم اشـتعل بالكراهية . لعله ينتظره ! . لعله مجرم محترف . لقد انتهى حقا .

وفى البيت كان حديث الأفراح يتردد فى أكثر الأوقات . عن العريس والحفل يتكلمون ، عن الحلىّ والملابس والجهاز لا ينقطع الحديث . ومنى سعيدة جدا ومثلها أمها وسرعان ما ينخرط فى همومهم الممتعة ويدلى برأيه فى كل شىء . ولكنه حصن نفسه هذه المرة بقوله :

ــ الظاهر أنى متوعك اليوم ، أعفونى من الكلام ومن الطعام .. !

بذلك حصن نفسه ضد الأعين المتفحصة ، وشرب كوبا من البرتقال ثم آوى الى فراشه . وسعادة منى المتجلية لم تبرح مخيلته فعذبته عذابا أليما . وقال لنفسه بأنه لن يسمح لقوة

بالغدر بهذه السعادة . واستعرض فى لحظات حياة طويلة طابعها الجد والأمانة والاستقامة .

علام يسرى مثال طيب حقا فى وسط ملعون . وذلك الخطأ الذى ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ينفجر على غير انتظار كلغم منسى . وقد ارتكبه ليتقبل فى المعهد وحتى لا تضيع آماله هباء . لم يكن مغامرا ولا مستهترا بالمبادىء ولكن اغتاله الضعف والأمل . وكان موقفا رهيبا عندما قدم أوراقه فنظرة مدققة من عين المسجل كانت كفيلة بنبذه من المجتمع . وآمن بأن جريمته قد دفنت فى الملف الى الأبد ولكنه لم ينس أنه سيغتال الحكومة فى عامين من مدة خدمته . ولم يرحه ما قدم من عمل مجد واستقامة فعزم على طلب الاحالة على المعاش عندما يحل موعده الحقيقى الذى لا يعلم به أحد سواه . أجل طالما ذكر نفسه بذلك ولعل مرض القلب الذى انتابه منذ أعوام كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفية المنغرزة فى ضميره . وقد تسلل عبد الفتاح حمام الى حجرته ليقوض بنيانه بلطمة واحدة . وجعل يتطلع الى فضاء الغرفة منقبا فى ذهول عن القوة المدمرة الساخرة ! .

وذهب الى مكتبه مبكرا فى اليوم التالى ثم استدعى الشاب الى مقابلته . وبمجرد أن رآه وهو يقترب من مكتبه فى أدب كاذب وثبت فى باطنه رغبة جنونية فى الانقضاض على رقبته الغائرة بين كفيه وخنقه . غير أنه رمقه بنظرة طبيعية هادئة كأنما لم يؤرقه ليلة كاملة وقال :

ـــ لنعد الى حديثك الغريب ، الحق أنه يهمنى أن أعرف كل شيء !

وجلس عبد الفتاح فى خضوع وأعاد على مسمعه خلاصة ما قاله أمس ، فسأله :

ـــ ألا يجوز أن تكون واهما ؟

فأجاب بهدوء معذّب :

ـــ الواقع أننى لم أصدق عينى بادىء الأمر ، دققت النظر طويلا ، ولكى أقطع الشك باليقين رجعت الى شهادة المعاملة الخاصة بالاعفاء من التجنيد فتأكد لدى أن ثمة فارق فى العمر بين الشهادتين مقداره عامان ..

وساد صمت أليم غض المراقب عينيه فى استسلام نهائى وهو يتأذى بنظرة خصمه على صفحة وجهه . انه يطالبه بثمن السكوت . وعندما ينطق الصمت بما يضمره سيتردى فى هوة الجريمة وهو فى كامل وعيه بما يصنع هذه المرة . سيخطو الخطوة الأولى فى طريق قذرة لا نهاية لها . أجل لا نهاية لها . وأسر لا قرار له . آه أما من وسيلة لدفنه ؟ ! . وسأله :

ـــ وبعد ؟

ارتبك الشاب قليلا ثم قال :

ـــ قلت يجب أن أخبر سيادتك أولا ...

ـــ وثانيا ؟

انه ينظر فى الأرض ليخفى انفعالاته الشريرة . انه لا يريد أن يموت ولا أن يختفى كشبح !

ـــ ألا تريد أن تتكلم ؟

ولما لم يسمع منه جوابا سأله بصوت غريب فى لبرته :

ـــ ماذا تريد ؟

وبصوت ضعيف أجاب :

ـــ لا شيء الا ما يرضيك ، لم أقصد الا أن أؤدى خدمة لك ، أنت رجل نبيل ، وسأترك أمرى لتقديرك !

ـــ تكلم أرجوك ..

ـــ أنا آسف جدا لموقفى هذا ، ولكنها .. ولكنها فرصتى الوحيدة ..

ـــ وهى ؟

قال بضبط نفس أكثر :

ـــ يا سيادة المراقب أنت أدرى ..

قال وهو يشعر بذل لم يشعر بمثله من قبل :

ـــ ما ترتيبك فى الأقدمية ؟

ـــ لا أمل لى فى ترقية بالأقدمية ، على أن أنتظر خمس سنوات ..

ـــ واذن ؟

فقال بجرأة أوضح :

ـــ هنالك أكثر من طريق ..

فقال المراقب بلا وعى تقريبا :

ـــ هذا يورطنى فى تصرفات طالما عففت عنها ..



وارتمى على مقعده وهو يقول لنفسه : أنى مريض

وتبادلا نظرة انكسر لها قلب الرجل . تألم بلا حدود . انه يسخر من تعففه ومن حياته جميعا .

ولم يعد يطيق رؤيته فقام ماداً له يده . تصافحا ثم غادر الشاب الحجرة دون أن ينال وعدا صريحا ولكنه بدا مطمئنا كل الاطمئنان . وارتمى على مقعده وهو يقول لنفسه انى مريض . ما بى هو مـــرض بكل معنى الكلمة . وعنـــدما غادر الوزارة بسيارته لمح عبد الفتاح بموقف الأمس أمام محل الفول . وانعطف بالسيارة دون أن ينظر نحوه . غـــدا سيتبعه كظله وسيقع هو تحت رحمته . ودفع السيارة نحو أطراف المدينة بلا هـــدف وكان تلفن الى أسرته بأنه لن يعود قبل المساء . يجب أن يخلو الى نفسه وأن يبت فى أمره بلا تردد ودون ابطاء . أيسقط فى الهاوية أم لا ؟ . هل يسلم نفسه أسيرا مدى العمر أو يرى حلا آخر ؟. وكان ينطلق بسرعة غير عادية ويحاور الشاب طوال الوقت . أتحسب أنك ملكت كل شيء ؟ . أنا أقول لا فما أنت صانع ؟ . أجل نحن فى الخلاء حقا ، كورنيش النيل ، ألا تحب هذا المنظر الخلاب ؟ . لعلك خائف ، أرأيت ، كان ينبغى أن أكون أنا الخائف لا أنت أليس كذلك ؟ . لا .. لن يفيدك الصراخ . مت كحشرة . وشدت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعة . ستطرح هنا وحيـــدا بلا أدنى أمل . ولكن ما أسخف هـــذه التخيلات ! سيلقاك عبد الفتاح غدا ليسمع رأيك الأخير . وزاد من السرعة فى شبه خلاء تام . رأيك الأخير . بالقبول مع

الأسر أو الرفض مع الفضيحة وفى الحالين لا يمكن أن تنسى كرامتك . ومن غير الله يمكن أن ينتشلك من مأزقك الخانق ؟ .
ودعا ربه طويلا حتى اغرورقت عيناه .

***

ووقع حادث أسيف فى طريق الكورنيش .. !

وقال المحزونون : جرى القضاء عليه وهو يترقب سعادتين ، ترقيته وزواج كريمته ..

سُوق الكانتو

غاص حسونة فى ســوق الكانتو متأبطا لفافة كبيرة من الورق . كانت شمس الصيف الحامية تلهب الجموع الحاشدة وقد اصطفت على الجانبين عشرات من عربات اليد مثقلة بالملابس والأوعية والأوانى والأدوات القديمة . قصد حسونة عربة رمضان ولكن منعه من الوصول اليها ســياج من الجلابيب والملاءات اللف ، ولم يُجد صياحه فى اختراق هدير صاخب من أصوات النــداءات والمساومة والسب . ورصـــده حتى التفت ناحيته فصرخ بأعلى صوته :

ـــ يا معلم رمضان !

انتبه الرجل الى مصدر الصوت فلوح له حسونة بذراعه صائحا :

ـــ معى هدية !

وشق رمضان طريقه اليه بجهد قاس حتى بلغه ثم سأله :

ـــ بيع أم شراء ؟

فضحك حسونة عن أنياب كالأسياخ وقال :

ـــ ربنا لا يقطع لنا عادة ..

ـــ ما معك ؟

ـ چاكتة ..

ـ وضح الاهتمـام فى وجه رمضان فتنـاول اللفافة ثم استخرج الچاكتة ليتفحصـها . چاكتة رمادية فى حالة جيـدة كبيرة الحجم حتى لتصلح معطفا لحسونة . وسأله بلهجة ذات معنى :

ـ من أين ... ؟

فأجابه وهو يغمز بعين حمراء :

ـ اطمئن ..

ودس رمضان فى يده ورقة من ذات الخمسة والعشرين وهمّ بالرجوع ولكن حسونة تعلق بذراعه بحرارة وهو يقول :

ـ عملى ليس نزهة ، ليس نزهة ..

وبعد دفع وجذب رمى له بخمسة قـروش بحركة نهائية قاطعة ثم شق طريقه مرة أخرى الى عربته .

وجال حسونة فى أطراف السوق فابتاع أربع سجائر ورغيفا ولحمة راس ثم مضى الى جـدار المرحاض العمومى فجلس فى ظله . وراح يدخن سيجارة بهـدوء مؤجلا الأكل الى حين . شنكل !. تخيل وجهه القاسى ورأسه المشوه بالندوب . وارتعد جسمه الضئيل . لو شك فى لحظة واحدة انتهيت .

وتناول طعامه ولكن وجه شنكل سد حلقه .

وفى الليل لبد عند المنوَر يتصنت . وسمع صوت شنكل وهو يسأل بغلظة :

ـ أين الچاكتة يا ولية ؟

فأجابت المرأة :

ـــ لم تلمسها يدى ..

ـــ زارك أحد ؟

ـــ أبدا ..

ـــ خرجت ؟

ـــ أبدا ..

ـــ عفريت أخذها ؟

ـــ ربنا يعلم ..

وترامت اليه دمدمة عراك فارتعد فى مكمنه .

ـــ يا مجنون .. يا وحش ..

ـــ تعضيننى يا كلبة ؟

ـــ يعنى أموت وأنا ساكتة ؟ .. ما قيمة چاكتة ؟

ـــ يا خرابى ، فيها ما يساوى تعب عمر يا مجرمة ..

ابتعد حسونة عن المنور وهو يغمغم فى ذهول «تعب عمر» . انتقل من سطح الربع الذى يسكنه شنكل الى السطح الملاصق له قاصدا غرفته الخشبية . تعب العمر ؟ ! . ولكن كيف ! . لقد فتش الجيوب جيباً جيباً فلم يعثر على شىء !. البطانة . أجل البطانة . ولكن كيف كان له أن يتخيل ذلك ! . يجب أن يعثر على رمضان بأى ثمن . ولكن هل يرتاب شنكل فى أمره ؟ . هل يتصور أن خروفا يجرؤ على اقتحام عرين الأسد ؟ . ان عمره يعد بالدقائق اذا لم يحصل على تعب العمر ويرحل عن البلد ..

وغادر ربعه للبحث عن رمضان . وجد سوق الكانتو خاليا الا من شعاع خافت ينبعثٍ من مصباح عمومى فى أقصى طرفه الشمالى . ولم يعثر له على أثر فى قهوة الجوهرى ، ولا فى مجلسه بسوق الخضار ولا فى غرزة أم الغـلام . أتراه يعد النقود فى بيته ؟. ولمـا لم يكن يدرى أين مسكنه فقد رجع الى سوق الكانتو عازما على قضـاء الليل فوق الطـوار ليكون أول مستقبل له فى الصباح .

وجلس القرفصاء أقـرب ما يكون الى المصباح . ضيعت ثروة يا حسونة الكلب . ولكن من كان يصدق أن شنكل يترك ثروة فى باطن چاكتة مسروقة ؟!. وسمع وقع أقدام تقترب فنظر نحو الظلام فرأى شبحا قادما . وعندما دخل القادم مجال الشعاع وضحت معالمه بعض الشيء فاذا به شنكل !. ملأه الرعب فانتتر واقفا بلا وعى فعرفه الرجـل ورماه بنظرة سمرت قدميـه فى موضعه :

ــ حسونة !

قال بصوت متهدج :

ــ نعم يا معلم ..

ــ مالك مكوما كالزبالة !

ــ رأسى ثقيل فقلت أنام فى الهواء ..

وصفعه كأنما يجود عليه باحسان وسار فى طريقه . لم يصدق عينيه . وتبعه بنظرة حتى اختفى وهو لا يصدق عينيه . كلا انه لا يشك فيه والا ما أعلن عطفه بتلك الصـفعة ! . ما أعمى



لقد فتش الجيوب جيباً جيباً فلم يعثر على شيء !.

الخوف أليس هـذا بطريقه الذى يخترقه كل ليلة الى سـوق الخضار ؟!. وتنهد فى اعياء ثم تداعى على الأرض..

واستيقظ مبكرا والحياة تدب فى السوق . وما لبث أن رأى رمضان قادما يدفع عربته . هرع اليه بلا تدبر وقال بلا تمهيد :

ـ معلم رمضان أين الچاكتة ؟

رمقه الرجل بازدراء وهو يتمتم « يا فتاح يا عليم » ولما كرر الآخر سؤاله بلهفة أحدّ سأله :

ـ لم تسأل عن شىء لا يخصك ؟

ـ الچاكتة يا رمضان ؟

ـ عليك عفريت اسمه چاكتة ! ، بعتها ..

ـ بعتها ! ، يا خبر أسود ، بعتها يا رمضان ؟ ، لمن ؟!

أجاب بارتياب :

ـ عطية الحلوانى ..

ـ يا خبر أسود يا رمضان .

وضاق به فزعق :

ـ انطق !

سأله بعينين مجنونتين :

ـ ماذا وجدت فيها ؟

فصفعه اعرابا عن حسرته وهو يسأله بكراهية :

ـ ماذا كان فيها ؟

ـ تعب عمر !

ـ عمر من !

ـ شنكل !

ارتعد الرجل فهتف :

ـ شنكل ! .. تبيع لى مصيبة !

ـ ولكن مصيبة بيعها أكبر .

ـ صحيح انك نحس !

ـ البطانة يا رمضان ..

فكر رمضان يائسا ثم قال متنهدا :

ـ لا فائدة من النواح ، انتظر الليل حتى يرجع الحلوانى من حلوان ..

وقطع الكلام عندما رأى زبونا واقفا ينتظر لم يدر متى ولا كيف جاء . وتفحص حسونة الزبون باهتمام وقلق ثم ابتعد .

وعند المساء ذهبا معا الى قهوة الجوهرى فوجدا عطية الحلوانى منهمكا فى عشرة دومينو ، فصافحه رمضان وقدم له حسونة ثم اشتركا فى اللعب . وغادروا القهوة معا لاتمام السهرة فى حجرة الحلوانى فمشوا جنبا الى جنب فى شارع الموسكى فى شبه ظلام تتخلله أنوار متباعدة خافتة . وجعل يحاوران الشاب بجهد مُتكلف وهما يفكران فى شىء واحد . ودون مناسبة قال رمضان :

ـ ان شاء الله تكون الچاكتة موفقة ..

فقال الحلوانى وهو يتثاءب :

ـ طبعا ، ولكنها تحتاج الى تضييق (ثم وهو يلكزه

ضاحكا) وتغيير لون ، سلمتها أمس الى عبدون الرفّاء ..

وماتت رغبتهمـــا فى مصاحبته ولكنهما لم يجـــدا بدأ من الذهاب . وغادرا الحجـــرة قبيل الفجر وهما يترنحان فقـــال حسونة متأوها :

ـــ فاز عبدون بتعب العمر ..

فهتف به :

ـــ سنرى ، أنت من يوم مولدك نحس ..

ـــ أنا فى حاجة الى النقود لأهرب ..

فقبض على قفاه وهو يسأله :

ـــ وأنا ؟ ، سيظننى شريكك ..

فتخلص من يده قائلا :

ـــ انه لا يدرى شيئا عن علاقتنا ...

وفى الصباح ذهبا معا الى دكان عبدون الرفاء وهو يتأهب للعمل . وعانقه رمضان معانقة الخلان ثم جلس ثلاثتهم على أريكة فى نهاية الدكان التى كانت أشبه بدهليز ضيق غائص فى الجدار .

ومال رمضان على أذن عبدون رغم أنه لم يكن معهم رابع وهمس :

ـــ لا أحب أن أشغلك عن عملك فى ساعة الصبح ولكننا جئنا بخصوص الجاكتة التى سلمها لك عطية الحلوانى ...

فسأله عبدون بدهشة :

ــ مالها ؟

ــ هل قمت بالمطلوب لها ؟

ــ لم أمسها بعد ..

تنهد رمضان وحسونة بارتياح وقال رمضان :

ــ تلزمنا بعض الوقت ، دقائق لا أكثر ..

فقال الرجل بقلق :

ــ حد الله ! .. انها امانة ..

ــ عيب يا عبدون ، ستكون عندك بعد دقائق ..

نظر اليه بارتيـــاب ، وردد عينيه بين الرجلين ، وابتسم ابتسامة خبير ، ثم نهض الى كومة من الملابس المعلقة فى الجدار ففرّها بسرعة حتى استقرت يده على الجاكتة الرمادية فنزعها وراح يتحسسها باهتمام حتى استكنت يده فوق موضع أسفل البطانة . وحدج رمضان بنظرة ساخرة فقال الرجل :

ــ أحببت ان تقوم بشغلنا بعيدا عنك ..

هز عبدون منكبيه استهانة ، ورمى الطريق بنظرة حذرة ، ثم رجع الى الأريكة ويده تفك البطانة بخفة ، ثم استخرج رزمة من الأوراق المالية . ند عن حسونة صوت كالشهقة ، وقلق رمضان فى مجلســـه . أما عبـــدون فبدا نهما مصـــمما . وقال رمضان بلهفة :

ــ فلنقتسمها بسرعة قبل أن يجيء أحد ..

عند ذاك اختفى النور الهادىء الوارد من الطريق ولكنهم

لم ينتبهوا لذلك . وارتفع صوت كالخوار يقول بقسوة :
ـــ عفارم عليكم ...
تحولت الرؤوس فى فزع نحو الباب . وجدو أمامهم شنكل . شنكل بكل ما أوتى من طول وعرض وكريه منظر يسد الباب سدا . صاح عبدون :
ـــ أنا عبد مأمور ، ولا دخل لى فى شىء !
وصاح رمضان :
ـــ على الطلاق ما أعرف صاحبها !
وخرس حسونة فلم ينطق . ودخل الرجل على مهل حتى تناول الرزمة من يد عبدون المرتجفة . والتفت نحو حسونة قائلا:
ـــ هل ظننت أن عينى غفلت عنك دقيقة واحدة ؟
فتح الرجل فاه ولكن شنكل لطمه بيد كالمطرقة فاندلق من ركن الأريكة فوق الأرض وهو يتأوه وكأنه يتقايأ . وقال له بهدوء مخيف :
ـــ اختف ان كنت تحب الحياة ..
واستدار ليغادر المكان ولكن صفارة انطلقت . وطوق باب الدكان فى ثوان بالمخبرين .
ودخل الضابط شاهرا مسدسه وهو يقول بلهجة آمرة :
ـــ كل واحد فى مكانه ..
وانقض عليهم المخبرون قبل أن يفيقوا من ذهولهم . وقال الضابط يخاطب شنكل :

ــ أتعبتنا أسبوعا كاملا الله يتعبك ..

وعند الظهر وقفت سيارة مرسيدس أمام القسم وغادرها رجل ربعة بدين ذو لغد هائل . قابل ضابط المباحث فصافحه ثم جلس وهو يقول :

ــ جئت بناء على اشارتك ..

فقال الضابط :

ــ قبض على سارق چاكتتك ، ووجدت نقودك كاملة لم تمس ، وسوف تتسلمها فى الوقت المناسب ولكن ينبغى أن تبقى لاتمام بعض الاجراءات .

رمق الوجيه على سيف الضابط بنظرة امتنان وتمتم :

ــ همة عظيمة حقا !

فقال الضابط بلهجة ساخرة وهو يتفحصه بنظرة ذات معنى :

ــ أرجو أن تكون فى موضعها !

وقلق الوجيه وتأكدت ظنون طالما ساورته ، ولكنه كان شديد الحذر ، وعليه أن يستزيد من هذا الحذر مستقبلا .

واستطرد الضابط قائلا بلهجته الساخرة :

ــ مبارك عليك ! ، المال الحلال لا يضيع .. !

وجهاً لوجه

فى أقصى مكان بالحديقة جلسا شبه منفردين . وطيلة الوقت تبادلا نظرة مفعمة بالتطلع والهناء وهما يحسوان الليمونادة :

ــ ستكون سهرة طيبة بسينما ركس .

ــ والفيلم عن قصة غرامية مشهورة فهو يناسبنا جدا .

ابتسمت لتعليقه . وكان الفانوس الأنيق يبعث ضوءا هادئا فأضفى عليهما غموضا فاتنا . وسطعت رائحة الياسمين المطل من ثغرات التكعيبة المطوقة للحديقة الصغيرة ، ولم يكن بطرفها الآخر الا زوجان مثلهما غارقان فى التهامس . ونسمة لطيفة مشحونة برطوبة أغسطس ترددت من آن لآن .

وقال حامد :

ــ كالحلم ، كثيرا ما قلت ذلك لنفسى .

ــ هو كذلك ، لكنه حلم جميل .

منذ رآها فى رأس البر فى يوليو الماضى وهو يردد ذلك . بعد اختفاء خمسة عشر عاما رآها عند اللسان ساعة القيلولة . التقت عيناهما فى نظرة تذكر وعرفان . وابتسما بلا خطة . تقدم منها مادا يده فصافحته . أتذكرين مصر الجديدة ؟ . نعم .. شارع الزقازيق . منذ ذلك الوقت لم أرك .

بلى ، متزوجة وخارج القاهرة أكثر الوقت . وتقابلا فى الصباح التالى فعلم أنها مطلقة من عام وأن ابنها الوحيد قد ضم الى حضانة أبيه . وغادرا المصيف فى يومين متعاقبين وهما على تفاهم وميعاد .

ـ ها نحن الآن نفكر فيما كان يجب أن نفكر فيه منذ خمسة عشر عاما !

فابتسمت سهام قائلة :

ـ القسمة والنصيب .

ـ وكنت أراك كل يوم تقريبا .

ـ أذكر ذلك .

ـ وكنت معجبا بك !

ـ ولكنك ... أعنى لم تفصح بأى سبيل عن ذلك الاعجاب .

قال بنبرة المعتذر :

ـ كنت وقتذاك مترجما صغيرا بالخارجية ومرشحا لبعثة .

ـ والعواطف أكانت محرمة على صغار المترجمين ؟

فضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ليس من السهل التحدث عن خيال الشباب !

ـ أما أنا فقد انتظرت حتى ضقت بالصمت .

ـ وبلغت أنا الأربعين ولم أتزوج .

بعد تردد وهى تبتسم :

ــ لماذا ؟ ... مجرد سـؤال لا يتضمن أى اعتراض بطبيعة الحال .

ــ سرقنى الوقت ، كثيرون يمضون هكذا ..

اتجهت عينـاها لحظات الى العاشـقين فى الطرف الآخر للحديقة . ناضجة تمـاما وهو من حسن الحظ يفضل ناضجات نصف العمر .

ــ وعندما قابلتك بعد خمسة عشر عاما من الاختفاء وجدتك مطلقة ، وحزينة لحرمانك من ابنك ، فتذكرت بقوة غير متوقعة أننى بلغت الأربعين دون زواج وقلت لنفسى لعل هذا اللقاء قد تم ليصحح أكثر من خطأ .

وترامت نشرة أخبار الثامنة والنصف من مقهى بالسـوق وراء محل بيجل فاقتحمت مجلسهما الهادىء المعبق بالياسمين . وتساءل حامد :

ــ هل الحرب حقا وشيكة الوقوع ؟

فقالت باستهانة :

ــ هكذا يقولون منذ أن تولى هتلر الحكم .

ــ صدقت ، المهم أن تتزوج فى أقرب وقت ممكن .

عكست عيناها نظرتين متعاقبتين ، الأولى مشرقة والأخرى غامضة دارتها بابتسامة فقال :

ــ لا شك أنك فكرت فى ابنك ..

ــ أنت تقرأنى جيدا ولكننى على الحالين لن أراه الا نادرا .

ــ يمكن الاتفاق على ذلك مع زوجك .

ـــ لن يذعن ، انها العداوة العمياء .
طالعها بنظرة انكار فاستطردت :
ـــ أكثر أعوام المعاشرة احترقت بنار العداوة ، واستمرت بفضل تعلقى بابنى ، حتى أدركنى اليأس ..
ـــ سينسى الرجل العداوة مع الزمن .
ـــ ليس هو بالرجل الذى ينسى .
ـــ أمر مؤسف حقا .
ـــ المهم أن تفكر طويلا قبل ..
ـــ فكرت طويلا ثم اخترتك عن اقتناع وحب .
قالت برضى :
ـــ الواقع أنى أشعر بغربة شديدة فى بيت أختى بالرغم من أن حالتى المالية لا بأس بها .
ـــ انى أدرك ذلك يا عزيزتى ، لكن أتسمعين ؟ ! ، هل حقا ستقع الحرب ؟
ابتسمت ابتسامة دارت بها ضيقها بقطع تيار الحديث الأول وقالت :
ـــ لم تعد الأقوال تنطلى على !
ـــ الحالة أحرج مما تظنين .
ـــ أهى تزعجك لهذا الحد ؟
ـــ ايطاليا رابضة فى ليبيا .
رنت اليه بنظرة هادئة فاستطرد :
ـــ وهى رابضة أيضا فى الحبشة ، أتدركين معنى ذلك ؟

ـــ ولكن الانجليز ..

ـــ الانجليز ! ، اما أنهم ضعفاء كما يؤكد موسولينى واما أنهم أقوياء كما يدّعون ، وفى الحالين ستتعرض لأهوال الغزو ..

ـــ أنت منزعج كما لو أن الحرب ستعلن عليك أنت ! ، بالله خبرنى لماذا ترى أن يتم الأمر فى أقرب وقت ممكن ؟ !

ـــ آه .. ، نعم ، يجب أن يتم الزواج فى أقرب فرصة لأننى عرضة للنقل الى الخارج فى أول حركة قادمة .

ـــ عندك فكرة عن المكان المحتمل أن تنقل اليه ؟

ـــ فرنسا تصورى أن يمضى شهر العسل فى باريس !

ـــ يا له من خيال ! ، ولو أن ابنى سيبقى فى كفر الشيخ .

ـــ سوف ترينـــه يوما وهو رجـــل كامل ، أما اذا قامت الحرب ..

ـــ لن يتم النقل ، هذا كل ما هنالك ..

ـــ لن يمكن التكهن بشىء .

ـــ سنبقى هنا غالبا وليس فى هذا ما يضير .

ـــ آه يا عزيزتى هل تدركين معنى ضرب بلد كبلدنا بقنابل الطيارات ؟

ـــ لماذا يضربوننا ؟ ، لسنا أعداء لأحد .

ـــ سوف يتداعى كل قائم للخراب .

ـــ لا أصدق هذا .

ـــ لماذا ؟

ـــ قلبى مطمئن فى صدرى .

ـــ ما أجمل أن يطمئن انسان فى هذه الظروف !
ضحكت فى رقة بالغة وسألته :
ـــ هل عرفتنى فى رأس البر من النظرة الأولى ؟
ـــ طبعا .
ـــ اذن لم أتغير كثيرا ؟
ـــ أنت أجمل مما كنت ان يكن ذلك ممكنا .
ـــ لا تبالغ ، ألم تترك سن المبالغات ؟
ـــ الحب لا يعترف بالزمن .
ـــ أنا لم أسافر الى الخارج من قبل .
ـــ باريس ! ، عروس الدنيا ، صدقينى .
ـــ فرنسيتى ليست على ما أود ، ربما التحقت بمعهد مناسب .
ـــ أما اذا قامت الحرب ونحن فى باريس !
ـــ الحرب أيضا ! !
ـــ لتقم الآن اذا كانت تنوى ذلك .
ـــ فى باريس يمكن أن نرحل الى بلد محايد كسويسرا .
ـــ كل شىء يتوقف على ما يصيب وطننا هنا .
ـــ أنا مطمئنة كما قلت لك ، ولكن لماذا تقوم الحروب ؟
ـــ العدوات ، الألمان يستعدون لهذا اليوم منذ أكثر من عشرين سنة .
ـــ عشرون سنة ! ، اذن كيف يمكن أن تنسي عداوة ؟
وهو يضحك :

ـــ الناس لا ينسون العداوات ولكن من حسن الحظ أنهم يتزوجون رغم ذلك !

غادرا الحديقة وهى تتأبط ذراعه . وشقا سبيلهما بين الموائد فى محل بيجل الداخلى حتى انتهيا الى شارع سليمان . ورغم الحرارة المرتفعة جرت نسمة الليـــل وومضت فى السماء مئات النجوم فوق هامات العمارات الشاهقة . واقتربا فى طريقهما من قهوة ليمولد . كان يقف عند مدخلها ماسح أحذية مائلا الى الجدار فى تراخ ، يقبض بيد على صـــندوقه ويعبث بالأخرى بشارب ثائر غليظ كأن شعيراته قدت من أسلاك حديدية . ربعة ملىء ، يرتدى فوق جلبابه سترة محـــلاة ببطاقة خضراء تحمل اسم القهوة بأحرف بيضاء . وظهر عند رأس عطفة جانبية ملاصقة لجدار القهوة رجـــلان مجلببان . نادى أحدهما ماسح الأحذية قائلا :

ـــ يا عم .. من فضلك ..

استقام الرجل فى وقفته ثم اتجه نحو الرجلين اللذين وقفا داخل العطفة بعيدا عن أنوار الشارع . وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين عندما كان حامد وسهام يسيران بحذائه . وبغتة رفع الرجل الذى ناداه يده بهراوة الى أقصى الذراع ثم هوى بها بكل قوة فوق رأسه . صرخ الرجل متراجعا الى الشارع وقد سقط الصـــندوق من يده . وتشبثت سهام بذراع حامد وهى ترتعد . وفى نفس الوقت رفع الرجل الآخر يده بهراوته وهوى بها فوق رأس الرجل المترنح فوقع على ركبتيه متأوها :

ــ آه .. أنجدونى ..

تتابعت الضربات من الرجلين بسرعة فى قسوة وعنف واصرار حتى تهشم الرأس وغرق فى بحيرة من دماء . وحملقت سهام فى المنظر الدموى بلا ارادة ثم شهقت وتداعت مغمى عليها فتلقاها حامد بين ذراعيه . وارتفع الصياح ، وهرع أناس الى المكان من جميع الجهات ، وهب الجالسون على الطوار من رواد القهوة وقوفا يتطلعون ، ثم قدم شرطى جرياً وهو يصفر .

لم يجر القاتلان . لم يحاولا الهرب قط . وظل كلاهما قابضا على هراوته الملطخة بالدماء وعيناهما تعكسان نظرات وحشية متحجرة . وقال أكبرهما :

ــ نحن تحت مِأر الشاويش ولكن حذار أن يقترب منكم أحد .

حمل حامد سهام بين ذراعيه ومضى بها الى مشرب عصير قريب من القهوة . أجلسها على مقعد فى أقصى المحل وراح يربت على خديها برفق . وسأله صاحب المحل :

ــ أطلب الاسعاف ؟

فأجاب وهو يبلل منديله بالماء :

ــ انتظر لحظة من فضلك ، ربما أفاقت دون حاجة الى مساعدة ..

وجعل يمسح بالمنديل المبلل وجهها وعنقها حتى عجن البودرة بالأحمر بالكحل ، هذا والضجة فى الخارج تتزايد وسباب يتبادل



.. وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين
عندما كان حامد وسهام يسيران بحذائه

بلا حساب . وفتحت سـهام عينيها . رنت بهما الى وجهـه فى ذهول . وقلبتهما فى الوجوه بدهشة ، ثم غمغمت :

ـ أنا تعبانة ..

فقال لها وهو يواصـل مسح وجهها ليزيل عنه الأصباغ تماما .

ـ سآتيك بكوب عصير ..

شربت قليلا فيما يشبه التقزز وغمغمت مرة أخرى :

ـ منظر فظيع لا يمكن أن ينسى ..

ـ سينسى كل شيء حتما .

ـ ووقع الضربات على الرأس .. آه ..

ـ شدى حيلك ، يجب أن نذهب ..

واذا بصرخة تفلت منها وهى تشـير الى قميصه بعصـبية منذعرة . نظر فى مرآة فرأى رشاشـاً من الدم قد لوث أعلى قميصه فتقلص وجهه . ورأى مثله فوق صفحة حقيبتها البيضاء وثنية شالها . بلّ منديله للمرة الرابعة وراح يزيل آثار الدم عن القميص والحقيبة والشال فهتفت :

ـ هل لوثنى أيضا ؟

ـ لم يعد هناك شيء ، انظرى بنفسك .

عاودتها الرعدة فقال بجزع :

ـ لا شيء خطير ألبتة ، لسنا أطفالا على أى حال .

ـ لا تترك نقطة واحدة .

ـ طبعا .. طبعا .. استريحى واهدئى ..

أغمضت عينيها فى اعياء واستسلام . ورجع أناس من مكان الحادث الى مقاعـدهم وهم يتبادلون التعليقات فسأل صاحب المحل الذى لم يستطع مغادرته :

ــ كيف حال جاد الله ؟

ــ مات وشبع موتا ..

ــ مسكين ، لكنه رجل طيب ولا أعداء له ؟

ــ القاتلان ليسا من البلد ، صعيديان من أبنوب !

ــ ما له وأبنوب ؟ .. عرفته هنا منذ عشرين عاما .

ــ ثأر قديم ، هذا مؤكد .

وقال رجل بلهجة تلخيصية :

ــ لعله جاء من بلده هاربا ، ثم عثروا عليـه فانتهى عمره الليلة ، حكاية لم تعد تدهش أحدا ..

الهارب من الإعدام

غزا الجيش الألمانى الأراضى البولندية ...

انطلق الخبر من راديو مثبت فى كوة بجدار الحجرة الوحيدة القائمـــة فى الخرابة ، وترامى خارج الأســـوار فى أرض الخفير الواسعة . وصاح دحروج بحدة :

ــ هش .. اسمع انت وهى ..

سكت عن الزياط الولد وأخواته الثلاث . ولما رأوا الجد فى وجه أبيهم تسللوا بين أكوام الخردة واطارات السيارات وقطع الغيار الى الطرف القصى من الخرابة ، وهناك واصلوا لعبهم فى أمان . وتوقفت آمنة عن نشر الغسيل رافعة رأسها فوق الحبل المعلق ما بين قضيب بنافذة الحجرة وسقف لورى قديم وصاحت بزوجها محتجة :

ــ أفزعت العيال ، ملعون الراديو وأخباره !

تجاهلها دحروج فى غير ما غضب وأخذ النفس الأخير من عقب سيجارة ممسك بأنملتيه ثم قال :

ــ اذن هى الحرب !

أدرك سلامة أن الكلام موجه اليه فرفع رأسه عن عجلة كان يعالج اطارها وحدج الرجل بعينين تلتمعان وسط لحية سوداء

غزيرة تكتنف الوجه وتسترسل حتى الرقبة ثم قال باستهانة :

ـــ نعم ، أخيرا صدقوا .

واتهز سلامة فرصة تحول رأس دحروج نحو الصوت فاسترق الى المرأة نظرة استقرت فوق وجهها المشرئب ثم انحدرت الى جسمها الممشوق الريان الصدر . ولمحته المرأة قبل أن يستردها كأنما توقعتها وسرعان ما ولته ظهرها . انحنى الرجل فوق العجلة وهو يقول لنفسه ما أفظع الحرب فى حرارة أغسطس ، ما أفظع الحرارة ! . والتفت دحروج نحوه وهو يقول :

ـــ طالما تنبأوا بأنها ستخرب العالم ، ماذا عنا نحن ؟

أجاب السنى باسما :

ـــ نحن بعيدون ، فليأكل بعضهم بعضا ..

وضع رجلا على رجل وهو يجلس على صفيحة مقلوبة ونظر الى بعيد نظرة حالمة ثم قال :

ـــ سمعنا الأعاجيب عن الحرب الماضية .

فقالت آمنة ضاحكة :

ـــ أصلك عجوز !

فضحك دحروج عن أسنان سود قائلا بسخرية :

ـــ أنت لا تهتمين الا ببطنك ..

وقال سلامة وكان رغم تجاوزه الشباب يصغر صاحبه بعشر سنوات على الأقل :



.. فرفع راسه عن عجلة كان يعالج اطارها وحدج الرجل بعينين براقتين تلتمعـــان وسط لحية ســـوداء غزيرة تكتنف الوجه

ـ حقا سمعنا الأعاجيب .

ـ الأسيوطى من هو ؟ ، كان قبل الحرب شيالا !

ورجع العيال ناسين الوعيد فرجعت الضوضاء . وجرى محمود ابن السابعة ـ وهو البكرى ـ وهن فى ذيله فرمقه أبوه باعجاب وصاح به :

ـ ولد يا محمود شد حيلك ، الحرب قامت !

وعند الأصيل جلس دحروج وسلامة على خيشة متجاورين خارج سور الخرابة . ترامت أمامهما الصحراء حتى سفح الجبل ، منطفئة الرمال تحت الظل ، والداحت فى السماء الصافية صفرة باهتة هى بقية أنفاس القيظ المختنقة . وثمة شعاع وان من الشمس المائلة يتسلق هامة الجبل فى عجلة ، على أن الصحراء تزفر هواء منعشا باقتراب المساء . وراح دحروج يعد القروش والسنى مسند الرأس الى جدار السور سارح البصر فى الأفق . وجاءت آمنة بالشاى وجرى العيال الى الخلاء حفاة نصف عرايا . ورشف دحروج قليلا من الشاى الساخن وهو يقول :

ـ قلبى يحدثنى يا سلامة بأن الشغل سيضحك عاليا .

ـ ليصدق قلبك يا أبو محمود .

ـ ليتنى أستطيع أن أعتمد عليك .

ـ صديقك .. وأسير شهامتك .. ولكن لا يمكن أن أبرح الخرابة !

تفكر دحروج قليلا ثم تساءل :

ـ هل يعرفك أحد فى المدينة الكبيرة خلف هذه اللحية ؟

ـــ انهم يعرفون الجن .
ـــ وهل ينقضى عمرك فى الخرابة ؟
ـــ هى خير من حبل المشنقة يا أبو محمود !
أطلق دحروج ضحكة عالية ثم قال :
ـــ يحق لى أن أضحك كلما تذكرت حكاية هربك من بين حارسين !
ـــ خير الهرب ما وقع حيث لا ينتظر .
فقالت آمنة وهى واقفة مستقبلة الخلاء وقد انحسر شالها عن نصف رأسها الفاحم :
ـــ والعدم الرجل بلا دية !
فقال سلامة بنبرة غاضبة :
ـــ كان قاتلا ابن قاتل ، وقد تقدم به العمر حتى خفت أن يسبقنى الموت اليه ، ولم يكن يكف الأهل عن مطالبتى بالثأر !
فقهقه دحروج عاليا ثم قال :
ـــ وهربت والأوراق محمولة الى المفتى ..
شد سلامة على ذراعه بامتنان قائلا :
ـــ ووجدت نفسى ضائعا فقلت ليس لى الا دحروج صديق صباى فآويتنى يا شهم الرجال .
ـــ نحن رجال يا سلامة .
ـــ على أى حال فالمخزن هنا فى حاجة الى رجل وانى رجله .
وقطع حديثهم ظهـــور جنازة فى الأفق قادمة من ناحيـــة العمران . مضت تتقـــدم نحو الطريق المحاذى لســـور الخرابة

الغربي المفضى فى نهايته الى قرافة الخفير . ووضح النعش مسجى بغطاء من الحرير الأبيض فتمتمت آمنة :

ـ شابة صغيرة يا حسرة عليها .

فقال سلامة :

ـ المكان هنا جميل وآمن فلا عيب فيه الا أنه فى طريق القرافة .

فتساءل دحروج وهو يضحك :

ـ أليس طريقنا جميعا ؟!

لم يطرأ على الخلاء تغير يذكر مذ أعلنت الحرب . ظل ملعبا للشمس من الشروق الى الغروب ، ومعبرا للنعوش ، ومعسكرا للصمت . وأطلقت زمارات انذار فى تجارب غارات وهمية . وارتفعت أهمية الراديو القديم الباهت الى القمة حتى بات فى وسع دحروج أن يحصى القنابل المتبادلة بين سيجفريد وماجينو . وكلما استقبلت حواس سلامة صوتا منغوما أو حركة لاعبة أو نظرة ولو غير مقصودة احترق باطنه بنار شرهة وغضب فى ذات الوقت على نفسه بلا رحمة . وقال دحروج فى ضجر :

ـ الحال لم تتغير فأين ما سمعنا عن الحرب ؟!

ـ صبرك ، ألا تذكر ما قال عميلك اليهودى ؟

نظر دحروج نحو أكوام الحديد التى ملأ بها المكان عملا بنصيحة عميله ثم قال :

ـ فلتسرع الأيام ..

ـ فلتسرع ، ولتلتهم خمسة عشر عاما من الزمن !

ـــ خمسة عشر عاما ؟!

ـــ فى آخرها تسقط عنى العقوبة !

ـــ يا له من عمر ! ، سوف نكون على حافة حرب ثالثة !

ـــ أى شىء أحسن من حبل المشنقة .

وراح يغنى بصوت محشرج غريب « يا بهية خبرينى » ثم هتف :

ـــ معلم دحروج ... لن يبقى من أهلى أحد الا النساء !

وقال ان آمنة تلعب بعقله وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى ، وأنه سيدخل الجحيم قبل أن يدركه الموت . ولم تكن الحرب تهمه فى شىء ولكنه سمع بين فواصل من الأغانى أنباء اجتياح هولندة وبلچيكا وسقوط باريس . وتتابعت أمام العين طوابير اللاجئين ، وامتلأ الفراغ بالتنهدات والدموع ، ثم اذا بايطاليا تعلن الحرب . وقال دحروج بقلق :

ـــ ها هى تدق الأبواب !

فقال سلامة بعدم اكتراث :

ـــ لا علينا ولا لنا .

وتمتمت آمنة وهى تتابع لعب العيال العرايا حول برميل ملىء بالماء :

ـــ ربنا كبير .

ولأول مرة انطلقت زمارة انذار بغارة حقيقية . استيقظ دحروج وأسرته كما استيقظ سلامة فى مرقده باللورى . وأعلنت آمنة عن خوفها على العيال وقالت ان المخبأ بعيد فقال دحروج :

ــ ابقى فى الحجرة فلن يضربوا الخلاء أو القرافة ..

ورفع سلامة رأسه نحو البدر الذى يحدق فيهم بهدوئه الأبدى ثم قال :

ــ لا أرى الا أنوارا مجنونة .

ومن نافذة اللورى مد بصره الى الحجــرة المغلقة . قائمة لصق السور على يسار المدخل بسقف مائل نحو الباب وجدار لا لون له ، مطلية بضوء القمر طاوية جوانحها على قلوب مفعمة بالقلق ، ككوخ مهجور أو حلم غريب . وعصفت به رغبة جامحة كأنوار الكشافات المجنونة فتخيل أنه جنىّ الليــل والخلاء . والغارة تنقض فتهدم كل قائم فى المدينة وتطيح بالقانون والمفتى والقاضى والسجان وحبل المشنقة . ويتفجر باطن الأرض وتجتاح كل شىء حتى الشهامة تختنق أنفاسها . وينهض من بين الأنقاض رجل عار وامرأة ممزقة الثياب وقد قتل الرقباء .

وتلاحقت الغارات ليلة بعد أخرى . غارات صامتة كالخلاء أو تتخللها مدافع مضادة . واعتاد دحروج فى أثناء الغارة أن يذهب الى سلامة فى اللورى ليشاهدا السماء ويتحادثا :

ــ ليست الغارات كما سمعنا !

ــ الطليان ليسوا كالألمان .

وضحك دحروج وقبض على لحية سلامة قائلا :

ــ أنت مغالط عزرائيل فى عمرك !

ــ نعم ، كان ينبغى أن أكون فى القبر منذ عام ونصف عام على الأقل .

ـــ ولذلك فأنت لا تخاف الموت ؟!

ـــ بل أخافه منـــذ أن شممت رائحته وهم يحملونه الى المفتى !

ـــ تصور كيف كان يكون شكلك الآن ؟

ـــ أحمـــد الله الذى أمهلنى حتى أرى الأنوار الكشافة والمدافع المضادة ..

ودب نشاط جديد فى الخرابة ثم تضخم بحال لم يحلم بها دحروج من قبل . ومضى يغيب عن المكان ساعات كل يوم ثم استغرقت الأعمال الخارجية نهاره كله . وعمل سلامة فى الخرابة بكل همة كحارس وكخزان . وفى أوقات الفراغ يجلس على اطار من المطاط مسند الظهر الى رفـــرف اللورى الخلفى ، يدخن سيجارة أو يمشط لحيته ، وعينـــاه الحادتان تذعنان فى مطاوعة متزايدة لرغباته الجامحة . وقال انها تتجاهل عينيه ولكنها شديدة الاحساس بهما طوال الوقت ، وأن نظرته الثاقبة تسيطر على حركاتها وسكناتها كأنما تلعب بها بخيط خفى . ونظر الى السماء يتابع حدأة تجول جولة الوداع عند الأصـــيل ثم نظر أمامه فرآها واقفة على مبعدة أمتار منه تجاه الصنبور الذى تدفق منه الماء الى صفيحة . وقال :

ـــ كان يوما شديد الحرارة ..

هزت رأسها بالايجاب . ونظرت الى عينيه المحدقتين ثم غضت بصرها وهى تدارى ابتسامة . اكتسحت الابتسامة وازع الشهامة فى صدره فاجتاحه اعصـــار . وتنهد بصوت مسموع

فزجرت المرأة محمود الذى جذب أخته من ضفيرتها عند الباب . وسألته :

ــ أعد لك الشاى ؟

فقال بنبرة تمردت على سيطرته :

ــ من المنتظر أن يسافر قريبا الى الشرقية !

ورجع دحروج مع المساء . بدا متعبا معفرا ولكن النجاح تألق فى عينيه . وضحك عاليا وهو يقول لسلامة :

ــ يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون ، الحرب نعمة كبرى !

وأعطى آمنة لفافة لحم كبيرة قائلا :

ــ أسرعى ، لم أذق اليوم لقمة واحدة .

ومن داخل الحجرة وهو يغير ملابسه ارتفع صوته :

ــ سأسافر غدا الى الشرقية ..

غاب يومين وعند أصيل الثالث انتظره سلامة فوق الخيشة خارج السور . جلس هادئا ثقيل الجفنين ، يتخلل لحيته بأصابعه ، يحصى الحدأ المتخلفة ويبادل الخلاء فتورا واستسلاما . وترامى اليه من الداخل صوت آمنة وهى تنهر العيال بصوت هزه المرح فرنا الى ذيل الشمس الآخذ فى الانحسار عن قمة الجبل وقال ان الليل لن يلبث أن يجثم . ولفته صوت من الغرب فرأى تاكسى قادما حتى وقف عند نهاية السور ثم غادره دحروج . اقترب الرجل وهو يضرب الأرض بقدم ثقيلة ثابتة

ورأسه مرفوع . اســتقبله واقفا فتصافحا ثم لكمه الرجل فى صدره وهو يضحك قائلا :

ــ سلامة يا بن زينب ، الانجليز رجال !

رمقه مستطلعا فاستطرد الآخر فى مباهاة :

ــ وأصلهم من الصعيد .. !

فدعا له بالمزيد من التوفيق . ودخل الرجل الخرابة صائحا بفرح كالأطفال :

ــ ولد يا محمود ..

وراح يغنى « سلم على » وهو يفرقع بأصابعه راقصا .

وعوت الزمارة قبيل الفجر فمضى دحروج وســلامة الى الخلاء خارج السور كما تعودا أن يفعلا أخيرا .

وقال دحروج :

ــ لم تعد الزمارة تخيف أحدا .

انسابت الصحراء تحت ضوء القمر مرتعا للأحلام . وضحك دحروج طويلا حتى سأله ســلامة عما يضحكه فأجاب وهو يومىء بكوعه الى الحجرة :

ــ شهدت هذه الليلة عمك دحروج كما كانت تشهده ليالى الشباب !

وحل صمت قصــير مسقوفا بأنوار الكشــافات ثم عاد دحروج يقول بلهجة جادة وأخوية معا :

ــ ســلامة .. ليس اليوم كالأمس ، سيجىء كثيرون من العملاء الجدد ، أخشى عليك !

سأله سلامة واجماً :

ــ هل ينبغى أن أذهب ؟

ــ نعم ، سأهربك الى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابى ، ما رأيك ؟

ــ الرأى رأيك ..

قال بثقة :

ــ كل شىء مرسوم يا بن زينب !

وفجأة ارتجت الأرض بزلزال ودوى انفجار شلّ خفقان القلب . شد دحروج على ساعد سلامة بعصبية :

ــ ما هذا ؟

أجاب سلامة ووجهه يشحب فى ضوء القمر :

ــ قنبلة ! .. أسرع الى الحجرة ..

وارتفعت صرخة آمنة فصاح بها دحروج :

ــ مكانك .. مكانك يا آمنة ..

واذا بالضرب يتتابع بلا توقف . جرى الرجلان نحو الخرابة . وفى اللحظة التالية ندت صرخة عن دحروج ثم سقط على وجهه . هتف سلامة :

ــ معلم !

وانحنى فوقه ليساعده على القيام ولكنه لم يستطع شيئا . وانطرح فوقه بلا ارادة . وانغرزت جبهته فى الرمال . وهبطت

الأرض . وارتفع جناح الصحراء صوب السماء . وشيء كثيف حجب وجه القمر .

ـــ ماذا بك يا دحروج !

ونادى صوت ثم ابتلع الظلام كل صوت وكل لون .

وأراد سلامة أن يقول لصاحبه : سامحنى لقد غلبنى النوم .. ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة .

سائق القطار

كل شيء يجرى الى الوراء . الصفصاف وأعمـدة البرق تجرى بسرعة فائقـة أما الأسـلاك فتسبح بلا توقف هابطة صاعدة . وعلى مدى البصر تغمـر الشمس غير المرئية الحقول والجداول وقطعان البقـر والجاموس وأبناء الأرض . ودّ أن يستسلم لتيار المناظر ولكن حنـاجر الجيران المزعجة أبت عليه ذلك . ما بالهم محتدين ، لماذا يغطى صخبهم على صوت الديزل !. وحول عينيه الى الداخل فرأى الى يمينه رجلا بدينا ذكرته هيئته بدب ، وعلى المقعد المزدوج أمامه جلس رجـل له وجه صقر وامرأة حسناء تابعت حديثهما الصاخب بضيق وحرج واضحين . وقال الصقر مخاطبا الدب بحدة وانفعال :

ـــ لا تحاول .. عبثا .. !

واشتد بريق عينيه الجاحظتين وتجمع فى ركنى فيه زبد أبيض وسرت تقلصات عصبية فى شاربه المقوس كهلال مقلوب . وبدت الحسناء وادعة كحمامة ولكنها فى خلال المناقشة الحامية هجّرت فوق الرف ، ثم تطوعت لتلطيف الجـو فخاطبت الصقر قائلة بصوت ناعم :

ـــ أعطه فرصة .. اسمع رأيه ..

فصاح بها :
ـ لا تتدخلى ... أنا هو أنا ..

تراجعت بجمالها ونعومتها ويأسها . وفى أثناء ذلك التقت عيناها بعينى الغريب الجالس الى جوار النافذة وكأنما آلمها أن تعامل أمامه كطفلة . وبقدر ما أسف الغريب لحالها بقدر ما بهره جمال عينيها وهما ينفذان فى عينيه . وقال الدب فى هدوء نسبى ولكن بصوت ذى رنين منفر :

ـ على أى حال فالناس للناس .

ـ هراء ! ، أنا أتعامل مع جميع أنواع الحيوان أما ذلك الانسان ..

ولوى بوزه بازدراء لا حد له فسأله الآخر :

ـ هل علمت بما جرى له فى الفترة الأخيرة ؟

ـ أنا أعرف أقصر طريق بين نقطتين !

ـ ستجد فى النهاية أن يدك اليمنى تضرب اليسرى .

فلوح بيده غاضبا وهو يقول :

ـ اننا لا نتردد عن بتر اليد أو الساق عند الضرورة !

آه .. لا سبيل الى الاستمتاع بالمنـــاظر الخلابة فى الخارج . ومهما تتجاهل المعركة السخيفة التى انحصرت فى مجالها فسوف تلاحقك كضربات المطرقة . لن تنسى الزبد المقرف وحتى رنوة العين الصافية لن تدعك فى سلام ! . والحال تؤكد أن احتدام المعركة لن ينقطع كدوى عجلات الديزل المتواصـــل فى روتين مسقم ، وليس ثمة مقعد خال فى العربة يمكن الهروب اليه .



فصاح بها : لا تتدخلي . . . أنا هو أنا . .

وطرح رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه . وكأن الله استجاب لدعاء خفى فأخذت المناقشـــة تستهلك نفسها بنفسها فخفتت الأصوات ثم حل صمت عجيب مريح ، وقد خلا كل الى تياره . بديع كحلم . واللعنة على الرجل العنيد وعلى كل خصام . وفتح عينيه ربع فتحة مسترقا نظــرة من الوجه الرائق فرآه منبسطا قد زايله الحرج والخجل وشعور المذلة . وعلى حين راح الدب يشخر انهمك الصقر فى مطالعة جريدة ، وتجلت فى عينى الحسناء نظرة هادئة كأول اشراقة للصباح ، متمادية فى الحلم لا تنظر الى شىء بالذات . وفتح عينيه لصف فتحة فالتفتت عيناها اليه مستجيبة فيما بدا لاحساس خفى . وقال لها ــ فى باطنه ــ كم أحب منظرك ، فحولت عنه عينيها فى شبه رضى حتى عجب لقوته السحرية . وانتبه الى ماحوله أقصى انتباه ، ولما اطمأن الى غفلة الصقر ونوم الدب ملأ عينيه منها بنهم ، فرأى فيما رأى خاتم الزواج فى يسراها المستكنة على يمناها فوق بطنها . ومالبث الصقر أن نحّى الجريدة جانبا ومال برأسه الى الوراء ثم استغرق فى النوم . وتولاه شعور بالأمان عجيب كأن الدنيا قد خلت بعد نوم الرجلين خلوا تاما . وانبعثت من أعماقه جسارة واستهانة فواصل حديثه الباطنى بعينيه الى أبعد مدى . وقامت المرأة وهى تبتسم ابتسامة لا ترى عادة الا بالقلب ومضت نحو مدخل العربة. وباندفاع لا روية فيه قام ثم تبعها على الأثر . ولم يكن بالمدخل أحد سواها ، ولم تدخل دورة المياه كما توقع ولكنها وقفت وراء الباب المحكم الاغلاق رانية الى الحقول . ولما سمعت وقع

قدميه التفتت نحوه عفوا فانتهز الفرصة وحياها بهزة قصيرة من رأسه . أعادت رأسها الى موضعه الأول دون رد ودون اعتراض كذلك فقال متشجعا :

ـــ لاحظت بأسف شديد التنافر الواضح بين طبعك الهادىء والجلسة المزعجة !

وافقت على رأيه بمزيد من الصمت الراضى فضحك ضحكة قصيرة خافتة وهو يهمس :

ـــ الوقوف هنا أجمل .

عند ذاك تمتمت :

ـــ أظننا أزعجناك أكثر مما يحتمل .

ولشعوره بقصر الفرصة المتاحة سألها :

ـــ حضرتك من القاهرة ؟

هزت رأسها بالنفى . وبعد وقفة قصيرة قالت :

ـــ من طنطا ، وحضرتك ؟

هزه السؤال الايجابى حتى الأعماق فقال دون تردد :

ـــ أنا من القاهرة ، أيمكن أن أعرف عنوانك ؟

ـــ لا فائدة ، نحن نقيم فى العزبة ..

ـــ ربما سافرت الى القاهرة فخذى رقم التليفون ..

ـــ لا فائدة ..

وبعد أن ألقى نظرة على الباب المغلق قال بحرارة :

ـــ ان ما بى هو الجنون بعينه ، لا يمكن أن نسلم بالفراق دون مقاومة ، أنت تفهمين ذلك ؟

ــ نعم ..
ارتفعت حرارة حماسه الى القمة وهو يقول :
ــ يخيل الى أنك غير سعيدة ..
ــ نعم ، جميع ما حولى مرعب مقزز ، أود أن أطير بعيدا ..
ــ اذن طيرى ..
حدجته بنظرة متسائلة تروم أملا فقال :
ــ نغادر الديزل فى دمنهور .
ــ أهرب !
ــ نعم ، لا وقت للتردد ..
ــ وبعد ذلك ؟
ــ دعى الباقى لى .
ــ ربما استيقظ قبل ذلك ، هو أو الآخر
ــ سوف يظنك بدورة المياه ..
ــ ولكن ..
ــ لا لكن ، سنحاول ، هى فرصتنا على أى حال .
ــ لكن لا أحد منا يعرف الآخر !
ــ ما عرفناه حتى الآن أهم بكثير مما لم نعرفه بعد !
وفتح الباب قيراطا لينظر الى داخل العربة ولما وجد كل شىء هادئا أغلقه ثم نظر فى الساعة وقال :
ــ لدينا دقائق قبل دمنهور ، سآتى بحقيبتى الصغيرة .
ورجع بعينين ملتمعتين ووجه شديد الاصرار فقال بقلق :
ــ القطار لم يهدىء من سرعته !

فنظر فى الساعة مرة أخرى وقال :

ـــ لعلى أخطأت فى التقدير .

العكس حصل اذ زادت سرعة الديزل زيادة محسوسة غير متوقعة وما لبثت المرأة أن هتفت :

ـــ انظر !

مشيرة الى محطة دمنهور وهى تجــرى بسرعة فائقـــة الى الوراء ككل شىء فى الخارج :

ـــ كيف لم يقف فى محطة دمنهور ؟!

واذا بباب العربة يفتح ، ورجل يندفع منه نحو باب العربة التالية وهو يصيح بأعلى صوته :

ـــ السائق جن ! .. وسيهلكنا جميعا !

استدارت المرأة فى ذهول وتبادلت مع الرجل نظرة حائرة . وترك الرجل حقيبته ثم فتح باب العربة ناظرا الى الداخل فرأى جميع الركاب واقفين فى حالٍ من الاضطراب والذعر لا توصف ، وقد فتحت النوافذ جميعـــا واختلطت الأصـــوات وارتفعت فى هلوسة . ورأى الصقر وهو يصرخ غاضبا وفى ذات الوقت ينظر حواليه باحثا ـــ فيما أعتقد ـــ عن المرأة ، فأراد أن يحـــذرها ولكنه سرعان ما نسى ذلك واندفع نحو الداخل سائلا عما هنالك فلم يسمع صوته فشق سبيله بعسر شديد نحو العـــربة التالية صائحا :

ـــ أين المفتش ؟ .. أين رجال القطار .. ؟!

ومد يده ليفتح الباب فانفتح قبل أن يلمســـه وهرول الى الداخل رجل صائحا :

ـ السائق اعتدى على مساعده وقذف به خارج حجرته !

فسأله بأعلى صوته :

ـ قبضوا عليه ؟

ـ أغلق بابه دونهم ودفع القاطرة الى آخر سرعة ..

وارتطم الصياح بالصـــوات . ورغم الضجة المدوية سمع صوتا يقول :

ـ ستنفجر القاطرة أو يقع اصطدام قاتل .

ـ والعمل ؟

ـ سيهلك الجميع ..

اندفع من الباب مخترقا البوفيه الى المدخل المتصل بحجرة السائق المغلقة فرأى المفتش ورجال القطار ونفرا من الركاب . وسمع أحدهم يسأل :

ـ ما العمل ؟

فأجاب المفتش :

ـ نحن نفكر فى كل شىء .

ـ وهل ثمة أمل ؟

تجاهل المفتش الســؤال ثم رفع يده داعيــا الجميع الى السكوت فأطبق الصمت ، ثم راح يطـــرق الباب المغلق بيده هاتفا :

ـ عبد الغفار .. أصغ الى ..

فجاء من الداخل صوت كالرعد :

ـ لا تحاول ... عبثا ..

فصاح المفتش :

ـ يجب أن تسمع لنا .. لا شأن للناس بمشاكلك الخاصة .

ـ أنا هو أنا !

ـ عبد الغفار ما ذنب الناس ؟، معك رجال ونساء وأطفال.. كلهم أبرياء !

ـ هراء !

ـ ارجع الى عقلك قبل فوات الفرصة .

ـ هراء !

ـ تذكر ربك ، ألا تخشى لقاءه ؟

ـ هراء !

ارتفعت درجات الذعر الى غير حد . وتفشى الاضطراب فى كل موضع . وبذلت محاولات يائســة لدفع الباب أو تحطيمه ولكنها سرعان ما توقفت عندما هدد السائق بتفجير القاطرة . وأغمى على كثرة من النساء وبعض الرجال . وفقد شاب أعصابه فرمى بنفسه من احدى النوافذ مودعا الحياة بعواء ظل صداه يتردد طويلا . ونشبت معارك غريبة لم يعن أحـد بفضها أو معرفة بواعثها .

واقترب الرجل من كبير المفتشين وزعق به :

ـ أليس هنالك من حيلة ؟

فأجاب الرجل بصوت لا يقل عنه درجة واحدة :

ـــ جربنا كل حيلة !

ـــ أيعنى هذا أن نفنى جميعا لا لسبب الا ...

وشعر بذراعين تطوقانه من خلف قبل أن يتم جملته فالتفت فى ذعر واضح فرأى المرأة تطالعه بوجه مخطوف وبصر زائغ فصاح بها بغيظ لم يحاول اخفاءه :

ـــ تشددى .. لا وقت لهذا ..

فقالت بصوت مخنوق :

ـــ أين أنت ! ، جن زوجى فخنق أخى ثم راح يضرب رأسه فى الجدار ..

قال بضيق وكأنه لم يسمع شيئا :

ـــ نحن نجرى بسرعة جنونية نحو الفناء .

ارتمت بين يديه مغمى عليها فقطب فى حنق ، ثم مضى يجررها الى ركن المكان فأنامها على الأرض بسرعة آلية باردة ، ولما عاد الى المفتش وجده يصرخ ويشد شاربه ويبكى !. ودق الرجل الباب بقبضتين مجنونتين هاتفا :

ـــ يا عبد الغفار .. يا عبد الغفار ..

فجاءته الاجابة كطوبة :

ـــ أنا لا أعرفك ..

ـــ ولكنك ستقتلنى ..

ـــ هذا شأنى ولا علاقة له بك !

ـــ أنا لم أسىء اليك ، لا أنا ولا الآخرون .

ـــ لكنكم ركبتم قطارى .

ــ قل قولاً معقولاً ..

ــ أنتم المجانين !

ــ أليس لك أبناء ؟

ــ كلا .

ــ ألا تحب الحياة ؟

ــ كلا .

ــ أليس فى قلبك رحمة ؟

ــ كلا .

ــ خبرنى ما ذنبنا ؟

ــ أنتم تحبون الديزل !

ــ اطلب ما تشاء .

ــ ها أنا آخذ ما أريد بغير طلب .

وبصق المفتش على الباب صارخا :

ــ يا عبد الغفار يا مجرم يا وضيع يا غادر يا وحش !

وقرر الرجل أن يمضى الى نافذة ليرمى بنفسه منها وليكن ما يكون . وهو يتحول عن موقفه وقعت عيناه على المرأة المستلقية فى غيبوبة فقال ما أسعدها فى غيبوبتها . ووجد الركاب متكتلين يسدون المنافذ . توحدوا فى ذهول ورعب وارتجاف . عبثا حاول أن ينفذ من بينهم . ولما يئس رمى بنفسه عليهم وسرعان ما تلقته الأيدى بالضرب فانهال عليهم بدوره ضربا حتى لفهم الجنون جميعا . واذا بالواقعة تقع . وقعت الصدمة المتوقعة كأنها ارتطام كونى . اندفع الناس بقوة جهنمية فحطمت الرءوس

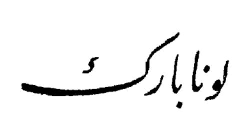
الرءوس ، وطحنت الجدران الأجساد . صرخ الرجل بأعلى حنجرته ورأى النجوم تتهاوى من حوله وصرخته تدور فى فراغ أحمر .

فتح عينيه ودوى صرخته يجعجع فى أذنه !

آه .. انه لا يصدق . اعتدل فى جلسته وهو يظن صرخته قد مزقت الآذان . ولبث هنيهة لا يجرؤ على النظر الى أحد . ثم أخذ يسترق النظر فى حذر شديد فلم ير أحدا شاعرا له بوجود . تنهد من الأعماق . وما لبث أن تنبه الى استمرار النقاش الحاد بين الصقر والدب .

ورأى المرأة نصف مغمضة العينين غارقة فى الضجر . اللعنة.. اللعنة . وكان الصقر يتحدى صاحبه قائلا :

ــ دعك من ضرب الأمثال العقيمة ، لا تضيع وقتك سدى ، أنت تعلم أن أنا هو أنا .. !


لونا بارک

تحرك ببطء فى طابور طويل طاويا تذكرة الدخول فى يده . تذكرة أهداها اليه أبوه وكانت فى الأصل ضمن الهدايا التى توزع باسم مدير لونابارك . تحرك فى عالم غريب مكتظ بالبشر فتلقت حواسه فى وقت واحد فيضا لا نهاية له من الأصوات والأضواء والروائح العطرية والعرق وضغط الأجساد . ومضى يتزحزح خطوة فخطوة فى المدخل الممتد على هيئة بوق حتى خرج من فوهته وقد زهقت منه الأنفاس . وجد نفسه فى ساحة يطوف بها نسيم رقيق وتطوق جناحيها أشجار متوسطة مغروسة فى أصص كبيرة فاتجه نحو طريق ضيقة تقوم على جانبيها دكاكين الأطعمة فأفضت به الى الملعب الكبير . فى الفرج الذى جاء بعد الضيق شعر بأنه ولد من جديد ، وهكذا بدأ رحلته . وصمم على تجربة كل لعبة فانه لم يتكبد مشقة المجىء ليبقى متفرجا . وصادفه مربع الأراجيح ، وكان أكثر رواده من الأطفال ولكنه لم يخل من مغامر شاب ، واذا به يتخذ موقفه فى القارب الحديدى قابضا بيديه على العامودين ، ويدفعه بحركة ذاتية فيصعد به ويهبط محييا ذكريات جميلة . وغادرها وهو راض عن نفسه تماما فابتاع بسكويتة دندرمة ومضى فى رحلته .

وللحال جذب انتباهه فرقعة وهتاف ، وصــوت الداعى « جرب قوة عضـــلاتك » . ورأى مدفع القـــوة يندفع فوق القضـــيبين الصاعدين نحو الهدف وقد ازدحم وراء الحـــاجز المتفرجون والمنتظرون لدورهم .

توثبت عضـــلاته للنضال . وسرعان ما اتخـــذ مكانه بين المنتظرين وهو يبتسم فى ثقة . ولمـــا جاء دوره تقدم من قاعدة المدفع وتناول مقبضه الصلب ، وراح يدفعه دفعات قصيرة ليختبر ثقله وسرعته فينطلق الى مدى قريب صاعدا ثم يتقهقر هابطا فيتلقاه من مقبضه مرة أخرى ، ثم شد على عضلاته ودفعه بأقصى قوته فاندفع طاويا القضيبين بسرعة حتى ارتطم بالهدف الفولاذى وفرقعت الكبسولة فى مقـــدمته . تحول عن موقفه والهتـــاف يدوى ، ولكنه ذاب فى زحمة أكبر كما ذاب الهتاف فى ضوضاء حلقت فوق المكان كله . وشق ســـبيلا مبهور العينين بأضواء المصابيح الملونة المتدلية من غصـــون الشجر حتى استقر أمام كشك لبيع البيرة المثلجة . ومال برأسه الى الوراء وهو يرفع القدح فرأى القمر فى الأفق منخفضا عن البالونات المنطلقة من صارى الملعب ، ولا تميز لنوره فى وهج الأضواء الساطعة ولا عبرة لجلاله فى الضـــوضاء المكتسحة الصـــاخبة . شرب حتى ارتوى ، واستمع قليلا الى أغنية تنهال من مكبر صوت وهو ينظر من بعيد الى مضمار السيارات المكهربة .

ومضى الى المضمار بنشـــاط متجدد . استقل ســـيارة فبدأ الرحلة المكهربة . اندفعت السيارة بقوتها الذاتية ولم يكن عليه

الا أن يوجهها بعجلة القيادة متفاديا اذا شاء السيارات التى تجول حوله كالكواكب . ووقعت ارتطامات عن قصــد أو عن عجز فاستمتع بالهجوم وبالهروب على السواء ، حتى رأى ســيارة تحمل فتاة قد تكالبت عليها الســيارات ناطحة والفتاة لا تنى تضحك . عند ذاك دب فيه حماس جديد فاستجد لجولته معنى ، وطارد سيارة الفتاة والشرر يتطاير من عجلات سيارته . وبدا عسيرا أن يستخلصها لنفسه من المتنافسين ولكنه احتك بها مرة ، والتحم بها أخرى فى عناد فدارا معا حول أنفسهما حتى ألقت به سيارة متحدية بعيدا . وكان عليه أن يدور دورة كبيرة قبل أن يتمكن من اســترداد ما فقده غير أن الجــرس رن معلنا انتهاء الدورة . ورأى الفتاة تغادر سيارتها فغادر سيارته . تبعها محاذرا حتى يبعد عن مجال الأعين التى توقع تجسسها عليه ، ثم أخذ يقترب منها . سمعت وقع أقدامه فنظرت وراءها لحظة فداخلته طمأنينة الى النجاح . وأبطأت عند ســياج مطرز بالياســمين والبنفسج يحيط بمطعم كباب مترام فى الهواء الطلق ففغمتهما رائحة الشواء الدسمة ممتزجة بعبير الأزهار . همس :

ــ أنت سائقة ماهرة !

فابتسمت فقال لنفسه انها جاءت لذلك . وقدم لها ذراعه فترددت قليلا ثم تأبطتها . ودعاها الى قدحين من البيرة . اسمى حسن واسمى سعاد . ودمعت الأعين والشراب البارد ينساب الى الاعماق . وسكب مكبر الصوت ألف ليلة ، أما القمر فقد

ارتفع فوق الصارى نائيا بنفسه عن برج الأضـــواء وصخب الهاتفين .

ــ ليلة بديعة ولكن أجمل ما فيها هو أنت .

ــ أنت ظريف جدا .

ــ هل يعجبك القطار ؟

ــ ولو أنه مرعب أحيانا !

جلسا جنبا الى جنب فى المقعد الأخير من العربة الأخيرة . ولحظ ابتسامتها وهو يختار المكان المنعزل فتوترت أعصابه . وتناول يدها فى يده والقطار يتحرك . سار القطار على مهل حتى اعترضته هضبة فاندفع صاعدا وضاعف اندفاعه وهو يهبط . وجرى بسرعة فوق متتابعات من المرتفعات والمنخفضات فطوقها بذراعه . ودار حول منعطف فى تمهل ماكر وراح يرتقى جبلا فى صمت ينذر بالخطر ، ثم انحط من عل كأنما يهوى فى فراغ وارتفع الصراخ . شد على خاصرتها فمال رأسها الى ذراعه فطبع على شفتيها قبلة طويلة . لم يكد ينتبه بعد ذلك الى معاكسات القطار حتى رجع الى المحطة . وقال لها ومشروعات الليل تتواكب فى رأسه :

ــ خير ما نفعل الآن أن نستريح فى مشرب .

وتبادلا « صحتك » مرة أخرى . وتحرك دبيب النشوة فى قلبه . ونظر فى مرآة مكللة بورد من البلاستيك فوق الطاولة فأعجبه شاربه الأســـود وخداه الموردان . وحدثها عن الليل فأحنت رأسها بالايجاب ، ولما غنى الصوت الملائكى سألها :

ــ تحبين الغناء ؟



ورأى الفتاة تغادر سيارتها فغادر سيارته . تبعها محاذراً
حتى يبعد عن مجال الأعـــين التى توقع تجسسها عليه

فأجابت بحماس :

ــ والرقص .

ــ وأى لعبة تودين ؟

ــ الحظ .

وجدا حلقة الحظ كثيرة الزحام فبلغا سياجها بعد مشقة . وتناول كل منهما حلقاته الخشبية الخفيفة وهو يتفحص الأهداف المنثورة فى تقارب معجز للصائد . سددا نحوها الحلقات فطاشت جميعها . وابتاعا مجموعة ثانية وثالثة من الحلقات وهو يحلم طيلة الوقت بعلبة فضية لا يدرى شيئا عما بداخلها على حين ركزت هى على زجاجة فلير دامور . وبعد الجهد والبذل أصاب زجاجة نبيذ وكسبت هى عروسا عارية . وذهبا وهو يفض سدادة الزجاجة ثم تناول منها شربة بعد أخرى . وركبا فى أثناء ذلك الساقية فارتفعت بهما الى جبين القمـــر ، ثم رقصا فوق سطح الغربال ، ودارت الخمر برأسه فأفرط فى مداعبتها حتى همست فى أذنه :

ــ حذار أن تلفت لنا الأنظار .

فقرصها فى ساعدها البض فقالت بشىء من الحدة :

ــ لا .

وانتزعت منـــه الزجاجة فأحكمت ســـدها ووضعتها فى الصـــندوق الكرتونى لصق العروس . واســـتقلا ترووللى غابة الأشباح فالقارب المتزحلق ، ثم وجدا نفسيهما أمام وادى التيه المعروف بحجرة جحا . هتف بسرور :

ــ عز المطلوب !

لكنها قالت بفتور :

ــ لا أحبها ، سنتيه فى سراديبها حتى تفقد الصبر .

فتناول يدها ضاحكا ثم دخلا . قطعا أمتارا فى مدخل مربع ينتهى بسد فى الأمام ، وعن اليمين وعن اليسار نفقان يستديران الى الداخل . ولاحظت تردده بين النفقين فقالت محتجة :

ــ من أولها حيرة !

فمال الى اليمين قائلا « لنكن من أهل اليمين » . سارا فى نفق مستقيم مضاء بفانوس يتدلى من السقف ، فانتهيا الى حجرة مستطيلة بها منفذان غير المنفذ الذى دخلا منه . وجدا بها بضعة أفراد وكان أحدهم يقول :

ــ هلكت من التعب .

فصاح آخر :

ــ الظاهر أننا لن نخرج الى سطح الأرض مرة أخرى !

اتجه بها نحو المنفذ الأيمن فسارا فى ممر بدأ ضيقا ثم أخذ فى الاتساع حتى اعترضته ثلاثة أبواب .

قلب عينيه بينها فقرأ على أوسطها بالقلم الرصاص « ادخل من هنا فانه مجرب » فتمتم :

ــ دعابة ماكرة لأحد اللاعبين ، على اللاعب هنا أن يعتمد على نفسه .

ــ لم تختار بابا دون آخر ؟

ــ العبرة بالتجربة .

ــ ولكن سنبدد وقت الفسحة .

ــ أليست حجرة جحا ضمن الفسحة ؟

مرقا من الباب الأيمن الى ممر قصير أوصلهما الى ميدان مسقوف تتعـــدد الأبواب على محيط دائرته ، وتكتظ باحته بالنساء والرجال . قهقه البعض وعبست وجوه فى نرفزة حقيقية . وقال رجل :

ــ لو أن أحدنا أصابه مكروه فهل يترك حتى يموت ؟

ــ لم لا يوجد مندوبون عن الادارة لتقديم المساعدة عند الضرورة ؟

ــ هل ننادى أحد المسئولين ؟

ــ نادى كثيرون ولا مجيب .

دخل حسن من أحد الأبواب فتخبطا طويلا من حجـــرة الى ممر ومن ممر الى سرداب ومن سرداب الى نفق ، وتيار الحائرين يصادفهم فى شتى الاتجاهات . ولم ينقطع لحظة واحدة الضحك أو الغضب أو التعليقات . وتوقفت سعاد وهى تقول فى رجاء :

ــ لنرجع .

فضحك قائلا :

ــ ماذا يعنى الرجوع أو ماذا يعنى التقدم ؟.. نحن نسير فحسب !

ــ ألا تذكر من أين أتيت ؟

ــ كلا .

ــ وطبعا لا تدرى أين تذهب !

ـــ هذا واضح .

وهى تتنهد :

ـــ تعبت وضجرت .

ـــ نحن معا وفى هذا ما يكفى .

ـــ ألا تسمع أصوات الغيظ ؟

ـــ وأصوات الضحك ؟

ـــ سنتخبط حتى موعد الاغلاق .

ـــ سر اللعبة لا يمكن أن يعرف فى أول جولة فليس أمامنا الا أن نجرب حظنا .

واستأنفا السير والتخبط ، وتجـــربة أبواب لا حصر لها وأنفاق وسراديب لا تنتهى . واشتكت أصابع قدميها فحذرته من الاضطرار الى حملها بين ذراعيه . وزادت جزعا عندما رأت رجلا قد اقتعد الأرض يائسا فى انتظار أن ينتشـــله رجل من الادارة عند موعـــد الاغلاق . وطال بهمـــا اللف والدوران والتخبط حتى تجهم الوقت ثم دفعـــا بابا بحركة روتينيـــة ميكانيكية فاذا بباب الخروج يطالعهما ! . قام الباب على مبعدة ثلاثة أمتار بهيجا رفيقا مضيئا محبوبا ، وتبدت ساحة لونابارك من خلاله سابحة فى الأنوار والأنغام . غادرا حجرة جحا وهما يتصببان عرقا فذهبا الى حديقة مشرب البجعة وطلبا بيرة . وضعت صندوق العروس على كرسى جنب حقيبتها ، وسلتت قدميها من الحذاء وراحت تقبض أصابع قدميها المخضبة وتبسطها

وهى تلحظه بعتاب . وبمجرد أن اســتقر الشراب فى بطنه دار رأسه وتفاعل النبيذ والبيرة بحال غير ودية .

قالت :

ــ أنت عنيد أكثر مما ظننت .

ــ هكذا يجب أن تكون الفسحة فى لونابارك .

ــ توجد ألعاب لطيفة وأخرى سخيفة .

ــ الأفضل أن نجربها جميعا .

انتعشت بالشراب فطلب قدحين جديدين وهو يقول :

ــ لم تبق الا لعبة الموتوسيكل .

قطبت متسائلة :

ــ تقصد لعبة الموت ؟

ــ لِم تسمى بلعبة الموت رغم أنه لا يموت بها أحد !

ــ لا يسرنى أن أرى راكب الموتوسيكل الذى يبدأ دورانه فوق الأرض ثم ينتهى وهو يدور حول السقف !

ــ هى اللعبة الوحيدة التى لم نشترك فيها بعد .

ــ لا .. لا ..

ــ لم لا ؟ ، ألا ترين أنها أشد اثارة من جميع سابقاتها ؟

ــ لن تتحملها أعصابى ، ولا معنى لها .

ــ بغيرها ستظل فسحتنا ناقصة !

ــ فلتبق ناقصة فهذا أفضل .

ــ ما دمنا قد جئنا فعلينا أن نجرب كل لعبة .

ــ لا تجعلنى أندم على معرفتك .

ـــ لنشرب مزيدا من البيرة ، هذا كل ما هنالك .

ـــ حسبنا ما لعبنا من لعب وما ربحنا من أشياء .

وأشارت بيدها الى صندوق العروس فقال باغراء :

ـــ سترين الرجل وهو لا يكاد يُرى من شدة الدوران .

ـــ اذهب بمفردك وسأنتظرك هنا .

ـــ لن يتحقق لى سرور وأنا وحدى .

أذعنت ازاء عنــاده وهى متبرمة . وشربا للمرة الثالثة ثم دست قدميها فى الحذاء وتأبطت ذراعه مرة أخرى . سارا على مهل اضطرارى فوق سيقان مسترخية من الجهد . ثقل رأسه بالخمار وعاود الألم أصابع قدميها . والزياط من حولهما يشتد وأفواج جديدة من الناس تقدم رغم انتصاف الليل .

وتوسط القمر السماء ، سماء صافية الا من سحائب رقيقة متباعدة عبرت سطحه كأنفاس حارة فى جو رطيب .

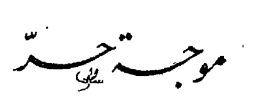
وترامى اليهما أزيز الموتوسيكل وهما يقتربان من زحمة المنتظرين أمام الباب . ضغطت ذراعه قائلة :

ـــ كم أنك عنيد !

فقال وهو يهز رأسه :

ـــ المؤسف حقا أن الفسحة ستنتهى .

وأدار نحوها وجهه بشوق وحنان ثم داعب ملتقى حاجبيها بابهامه ليزيل عنه تقطيبة منعقدة ، ولم يكف حتى منحته ابتسامة غير سعيدة .


موجة حرّ

المدينة الكبيرة تنفض النعاس فى صمت السحر . وقبيل الشروق تخضب الأفق بحمرة قانية . وقطرت السماء الباهتة زمنة فسطعت أنفاس دافئة . استند عسكرى الداورية بجسر الجلاء الى جذع شجرة رافعا رأسه الى الأفق عبر النيل ، وبصق ، ثم تمتم :

ــ يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !

وذابت الحمرة القانية فى وهج الشمس ، وانهالت الأشعة على الكائنات . وسعى فوق الأرض باعة وعمـــال ، وسرعان ما التمعت الجباه بقطرات العرق ، وأكثر من صوت قال :

ــ يا له من يوم !

واشترى أحمد علبة البلمونت ثم مال الى التليفون على طاولة الدكان فأدار القرص :

ــ نادرة ؟ .. صباح الخير .

ــ ...

ــ كلا ، لم أذهب الى المصلحة بعد ، أنا أكلمك من دكان السجائر

ــ ...

ــ فعلا ، والطريق أشد حرارة ، ولكنه جو مناسب لنزهة مسائية على شاطىء النيل ؟

ــ ...

ــ حسن ، السابعة مساء عند جسر الجلاء .

ارتفعت الشمس وسط هالة ناصعة قاسية . واستكن الهواء فى كينونة ثقيلة متطفلة ، وقرص الذباب الخدود فى بلادة وتكتل

كالسخام فوق صناديق القمامة . ونشرت الجماهير المتدفقة نحو محطة الباص الجرائد فوق الرءوس . وقال رجل :

ـــ الفول يغلى فى بطنى !

فأجابه الآخر :

ـــ اذن فكيف تكون الظهيرة ؟ !

وخلف المحطة مباشرة تبدت جباه العمال العاكفة على صف الحروف من نوافذ بدروم المطبعة وترامت أصوات الآلات بلا انقطاع .

وشابت القبة الباهتة صفرة كئيبة ضاربة فى حواشيها الى الاحمرار . ونزت الأرض رطوبة ساخنة أما الهـــواء فاختنق برائحة كريهة كأنما يتنفس دخانا . وفى ادارة الحسابات أغلقوا النوافذ ورشوا الأرض الخشبية الكالحة بالماء وأضاءوا مصباحا واحدا ، واستعملت الأضـــابير فى التهوية ، وأتبعت نصيحة مجرب باحتساء الشاى الساخن ! . وقال المراجع الكهل :

ـــ صدقونى لم تعرف البلاد حراً كهذا الحر !

ـــ مؤكد أن الحرارة جاوزت الأربعين .

ـــ أو الخمسين ، نحن نحترق فى الواقع .

ورفع المدير عينيـــه المظلمتين من هبوط القلب وقلّب فى الوجوه نظرة خابية حاقدة وقال :

ـــ ستعود الادارة بعد الظهر لانجاز الميزانية ..

أطبق الصمت فلم يناقشه أحد . وهمس كاتب :

ـــ الحقود وجد فرصة للانتقام !

ـــ صبرك ، لن يمتد به الأجل حتى منتصف النهار !

وفى الميدان ارتطم مقـــدم تاكسى بمؤخرة آخر عند اشارة المرور . وغادر السائق المتقدم مكانه ليعاين أثر الارتطام . مال فوق الفانوس الخلفى يسبقه شعر صدره المتلبد البارز من بين شقى قميصه وهو يجفف جبينه وخديه بكمه ، ثم رمى السائق الآخر الذى لحق به بنظرة ملتهبة فتمتم الآخر :

ـــ وقف التاكسى فجأة فلم ..

فقاطعه بحدة :

ـــ حطمت الفانوس .

فراح يجفف وجهه بمنديل ضارب الى السواد وهو يقول :

ـــ التواءة بسيطة ليس الا ..

صاح به مـتطاردا بلسعة الشمس :

ـــ أنت أعمى !

وتماسكا بشدة ثم انهالت اللكمات ، وجاء عسكرى المرور جريا وهو يسب ويلعن .

وتربعت الشمس فى كبد السماء كرة من نار تقذف حمما . وانتشرت الصفرة الكئيبة الضاربة الىالاحمرار لطخات متفرقة فى الأديم الضارى . ونفثت الأرض أطنانا من الحـــرارة اللافحة المركزة بالبخار . وانطلقت الباصات مائلة الى الجانب الأيمن من ثقل حمولتها ، وتلاصقت الأجساد البشرية حتى انصهرت فى جسد واحد هائل متعـــدد الألوان والتقطيبات متوحد العناء والعذاب ، واستقرت فى الأعين المتطلعة الى الطريق نظرة خاملة مستسلمة متقززة متألمة متصبرة .

ـــ العرق يتجمع ويهبط فى خطوط كالحشرات ثم يستقر فى الحذاء .

ـــ يوم من أيام الجحيم .

ـــ اذن فكيف يعيش الناس فى السعودية ؟

ولسبب ما انفجر السائق فى غضب قاذفا بسيل من اللعنات الفاحشة فصكت آذان السيدات والأوانس وكأنهن لم يسمعن ألبتة ، وواصلن وجومهن بلا مبالاة .

وأخذ مرسى صاحبه الى قهوة وبار آسيا وهو يقول :

ـــ لن تعرف حقيقة اليوم الا فى جرائد الغــد ، كم تظن درجة الحرارة ؟

ـــ فى الظل ؟

ضحك مرسى عاليا وهو يصفق مناديا الجرسون ثم قال :

ـــ هاك طريقتى المقتبسة عن الانجليز الذين يعيشون فى المناطق الاستوائية ، أن أشرب حتى تلطسنى الخمر ، هنالك لن أفرق بين ديسمبر وبين أغسطس ..

وقنع عساف وزوجه من الغذاء بأكلة جبن وبطيخ . وتجرد من ملابسه ثم استلقى ـــ كما ولدته أمه ـــ فوق الكنبة ، وفعلت حرمه مثله فوق الفراش . على ذاك لم يهنأ بالنوم لتسرب العرق المالح من جفنيه وانحداره أحيانا الى فيه الفاغر . استيقظ مرات ليجفف وجهه ثم يستغرق فى النوم ، ولكنه صحا أخيرا على ضوضاء وزياط منزعجا حقا . نهض متسخطا فجفف جسده بالفوطة ومضى الى الشيش لينظر ماذا يجرى تحت فرأى الغلمان

يلعبون الكرة فى الطريق تحت قذائف الشمس ! . وخلف الهدف مباشرة نام سائقو الكارو على الطوار فى ظل الجدران . لعن النسل والتناسل ثم رجع الى الكنبة وهو يتمتم ساخرا :

ــ يلزمنا جهاز تكييف هوا .

فتردد شخير زوجه عاليا .

واندلحت الصفرة الضاربة الى الحمرة وانبثقت منها اشعاعات تحمل رسائل من الكآبة والضجر . وتصاعد التثاؤب والتأوه . ونفذ صبر ست عليات زوج بياع الثلج فوضعت ربع لوح ثلج فوق رأسها ، ثم مسحت به عنقها ، ثم أرسته فوق صدرها طويلا ، ولم تمض ساعة حتى ظهرت عليها أعراض الحمى .

وأمام قهوة الحرية سقط عبد الرحيم القاضى المصاب بضغط الدم على جنبه ، وصدرت عنه تموجات تشنجية ، وانكمش جانب فيه وسالت منه رغوة ، ثم فاضت روحه .

وحتى العصر لم يطرأ تغير يذكر . خف توهج النهار قليلا . وبهتت الصفرة الكئيبة المنداحة فى السماء . ومالت الشمس ولكنها ظلت تصب النيران صباً . وانعقدت الرطوبة حول الأجساد مادة لزجة ذات كثافة ملموسة . ومع أن الشعر هو أحب القراءات الى حسن الزفتاوى الا أنه قال بفتور :

ــ كلمات .. كلمات ، لا توحى بشىء ، أين ذهب الشعر ؟

فأجابه صديقه حمدى مغمض العينين ملصقا زجاجة الاسباتس بجبينه :

ـ عبثا تبحث عن شيء له قيمة فى هذا اليوم .
ـ حتى الحب مات !
ـ وحتى الجنس فقد نكهته الحيوانية الحريفة !

وصادف عسكرى الدورية بحى الطبلية عربة خيار يدفعها صاحبها فى تراخ فثار غضبه ثم انقض على العربة فنزع مقبضيها من يد البياع ورفعها الى أقصى ذراعه حتى اندلق الخيار على الأرض وصاح :

ـ ألف مرة قلنا ممنوع مرور العربات !

وصرخ البياع وتجمهر الناس . وانتبه العسكرى المنقول حديثا من قسم قصر النيل الى قسم الجمالية الى أن التعليمات المطبقة على منطقة قصر النيل لا تنطبق على حى الطبلية ، فشعر بحرج مركزه ، ولكنه أبى أن ينهزم أو أن يعترف بخطئه فصاح مستزيدا من الغضب :

ـ كيف تسب الدين يا جاحد ! .. تسب الدين ! ؟

وأقسم الرجل بالطلاق ولكن أكثر من قسم بالطلاق ترامت من الأركان والنــوافذ . وتابع الحادثة بفتور الواقفون حول مشرب السوبيا ، يلهثون ويشربون ويتصببون عرقا ، والذباب يتلاطم فوق رءوسهم .

واستقرت أشعة الشمس المائلة فوق الجانب الغربى لعمارة النجمة بجاردن سيتى حيث يقيم ابراهيم سمهان المستشار . واستيقظ المستشار من قيلولته ليجد نفسه غارقا فى بحيرة من العرق . هز رأســه فى ذهول ونظر طويلا الى صورة جسده

المنطبعة فوق الفراش . كيف حدث هذا ؟ . وماذا يصنع اذن جهاز التكييف ؟ . انزلق الى الأرض وهو يترنح في جلبابه الفضفاض ، ومضى الى الجهاز ، فتبين له أنه متوقف . فسد الجهاز أم انقطعت الكهرباء ؟ . وأدار المفتاح الكهربائي فوجد الكهرباء منقطعة . لا شك أنها انقطعت بسبب ارتفاع الحرارة . وهذا يعني أن الفريجيدير أيضا متعطلة ، في هذا اليوم الملعون . وهو وحيد في القاهرة بينا تصـيف الأسرة في الاسكندرية . وحيد بكل معنى الكلمة فحتى الخدم في الاسكندرية ، ولولا اجتماع مجلس ادارة المؤسسة المنتدب اليها لما جرى عليه هذا الحظ التعس . وذهب الى الحمام وفتح الفريجيدير ليبل ريقه الجاف ولو بشربة فاترة ولكنه رأى صرصورا لابدا في عنق القارورة الوحيدة التي ملأها بنفسه قبل النوم ! . تحول عنها غاضبا عابسا الى صنبور الماء وفتحه ولكنه لم يقطـر نقطة واحدة . رباه .. غاض الماء من الأدوار العالية كما يحدث كثيرا في الأيام القائظة . أي جنون . ضائع في صحراء . كم أنه ظمآن ، وكم أنه متلهف على دش بارد ! . وغادر شقته في الدور الثامن الى الطرقة الخارجية . المصعد متوقف طبعا . كل شيء متوقف خرب في هذا اليوم الجهنمي . ونظر من فوق الدرابزين وصاح بأعلى صوته :

ـ عم محمد .. عم محمد ..

لا مجيب . وكرر النداء دون جـدوى . رباه ما العمل . ظمآن وحران ولا بد أن يذهب الى المرحاض أيضا . واذا به

يرى خادم الشقة التالية له وهو يصعد خطوة فخطوة ، ينوء بحمل صفيحة مملوءة بالماء . وأنزل الخادم الصفيحة على أرض الطرقة حتى يسترد أنفاسه . وقف شاحب الوجه بصدر يعلو وينخفض . ونظر المستشار ناحيته فتبادلا نظرة طويلة وهما صامتان . وضمّن المستشار نظرته رجاء مستحيلا فتجاهله الخادم وأرخى جفنيه زائغا مما قطع بأنه تلقى الرسالة ورفضها . له حق فليس فى الامكان أن يكرر عمله الفدائى مرتين ولكن ما العمل ؟ . ونظر المستشار الى الماء المترجرج فى الصفيحة الناصعة فازدرد ريقه الجاف بصعوبة ، ثم همس وهو يبتسم متوددا :

— تسمح لى بملء كوب ؟

فقال الخادم باستحياء :

— تفضل يا بيه !

وهرع الى الداخل ثم رجع بكوب فملأه ، وصبه فى جوفه دفعة واحدة ! . وجعل يستشعر الماء وهو يرشح من مسامه ، ثم تمتم :

— ماء دافىء !

— ينصب من الحنفية كالنار ..

وتذكر مطالبه الضرورية الأخرى فاستأذن فى ملء الكوب مرة أخرى فأذن له الخادم بتسليم لا حيلة فيه . ورجع الى الشقة وهو يقول ساخطا « بلد غير مستعد للحر مع أن ثلاثة أرباع عامه صيف ! » .

وتوارت الشمس فى المغيب وراء ستار دموى ولكن الجو لم يتحرر من قمقمه المنصهر . وأذاع الراديو أنباء الموجة وتفسيراتها الفلكية والدرجة الثامنة والأربعين التى بلغتها فى الظل . ورقدت المدينة فى همود تحت العذاب الأغبر . وانتظر أحمد عند جسر الجلاء حتى وافته اليه نادرة فى فستان رمادى عارية الذراعين والساقين .

ـ ماذا فعلت اليوم ؟

فأجابت وهى ترعش راحتها المبسوطة فى استفظاع :

ـ أوه .. يوم لن ينسى ..

ذهبا الى مجلسهما المعهود بالكورنيش ولكن الشاطىء كان مكتظا بالبشر لا موضع فيه لانسان . اقترح أن يمضيا سهرة فى سينما مكشوفة ثم يعودا الى النيل بعد منتصف الليل . ولما رجعا لم يكن الشاطىء قد خلا ولكن كان ثمة موضع . وافترشا الحشائش بعد أن أزالا عنها قشر الفول ومِزَقا من الورق ، ولم يكن فى الجو نسمة واحدة .

ـ مات الهواء ؟ !

فأجاب بضيق :

ـ شىء أثمن منه مات فينا .

ـ لن نحتمل يوما آخر كاليوم .

ومضى المكان يخلو بسرعة نسبية حتى وجدا نفسيهما منفردين . أخيرا . ولف ذراعه حولها فشعر فى جنبه بسخونة

وفغمت أنفه رائحة عرق فاتر . وانعكست أضواء الفوانيس على ماء ساكن راكد لا يلعب ولا يبهج :
ــ اذن متى تنكسر حدة الحرارة ؟
ــ آه .. متى ؟
وخيل اليه أن حرارة الحب تزدرد حرارة الجو بسرعة لم يتوقعها ، غير أن قدما ثقيلة دقت الأرض فى الظلام الصامت . ومن الظلمة المضاعفة التى تلقيها شجرة وارفة مرق شبح العسكرى فى ضوء المصباح . تعلق به رأساهما ثم همست :
ــ لا يوجد أحد غيرنا ..
فشبك راحتيه حول ركبته وغمغم حانقا :
ــ يوجد الحر ..
ــ لا تعط له فرصة للتحرش ..
مر العسكرى أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة غامضة . ابتعد حتى أوشك أن يختفى ولكنه توقف ، وتنحنح ، ثم استدار راجعا حتى وقف على مبعدة مترين أو ثلاثة . لبث واقفا فى عناد كأنه الحر دون أن ينبس . توقعا أن يقترب أكثر أو أن يتكلم ولكنه لم يفعل . ولكزته بكوعها هامسة : « هيا » . قاما معا ، وألقيا نظرة أخيرة على الماء الراكد ، ثم ذهبا .
وشىء غريب كريه زحم الجو ، ذو رائحة مريضة وشخصية مبهمة ، وقد انعقد حول مصابيح الطريق كالضباب ، وانتشر تحت النجوم فتراءت خابية . وتحرك العسكرى ببطء شديد ، وبصق ، ثم تمتم :
ــ قلنا انه يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !



مر العسكرى أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة غامضة .
ابتعد حتى أوشك أن يختفى ولكنه توقف ، وتنحنح ،

عابرو السّبیل

المدمج الشـارع الكبير فى حياة هؤلاء النـاس . شارع قصر النيل . ما بين السابعة والثامنة صباحا يقطعونه ثم يتفرقون الى أماكن أعمالهم . وتتكرر الرحـلة فى نظام فلكى على مر الأعوام . بدأها كثيرون وهم فى ريعـان الشباب والفتـوة وواصلوها حتى أدركتهم الشيخوخة وتخايلت لأعينهم النهاية . ومنهم من ينقطع دون سبب معروف للآخرين اذ أنهم يترافقون فى الطـريق ولكنهم لا يتعارفون . والعين تلقى نظـرة عابرة فلا تكاد ترى ، كأن الآخر شجرة مغروزة فى الطوار ، وربمـا استيقظت لسبب ما فترى بدهشة العوالم الغـريبة الماضية فى سبيلها ، كل عالم وحدة من الأسرار والأفراح والأتراح لا تدرى شيئا عن الآخرين . ولا تجد وقتا للتعرف الى ذاتها وتجهل كل الجهل مصيرها ، عند ذاك تنفجر الأسئلة فى غزارة ولكن تشح الأجوبة حتى الارهاق ، وتشمخ السماء بصفحتها ــ الصافية أو الملبدة تبعا للفصول ــ فلا تشفى غليلا ولا تبدد حيرة .

ثابر على تلك الرحلة ثلاثة أشخاص ، رجلين مصريين وامرأة افرنجية . بدأها الرجلان حوالى عام ١٩٢٥ ثم ظهرت المرأة بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانوا فى ذلك الوقت شابين وشابة . وكان

أحدهما طويلا نحيلا يتميز بعينين حادتين وسمرة غامقة وحركات عصبية ، أما الآخر فكان معتدل الطول والقد هادىء الطبع . وبدت الفتاة متعة للبصر بعينيها الزرقاوين وشعرها الفاحم وبشرتها الحليبية وجسمها الرشيق . وكانت ــ كذلك الشاب الطويل ــ بسيران فى اتجاه ميدان الأوبرا أما الشاب الآخر فيتجه نحو ميدان سليمان باشا ، ويتقابلون عادة فى منتصف الطريق أو نحو ذلك ، ولم يترك أحدهما فرصة اللقاء الا ويملأ من الفتاة عينيه ، المعتدل يرمقها بحياء وبلا غاية الا ابهاج الروح والحواس ، أما الآخر فيلتهمها بنظرة حادة ، ليست نظرة ولكنها كلام وفعل وعربدة ، ورئى مرة وهو يحييها وهى تتجنبه مبتعدة عنه مسرعة ، ذلك أنها كانت فيما بدا فتاة جادة نشيطة تنطلق بجدية وعزم العاملات ، لا تكاد تنظر الى غير الطريق ، واذا التقت عينها بعين الشاب المعتدل فبالقدر الذى يحتمه حب الاستطلاع أو ملابسات المشى فى حدها الأدنى . وجعل الشاب المعتدل يسترق النظر الى الآخر بامتعاض ، ويتابع مناوراته بحنق واشفاق ، متوقعا أن يراه ذات صباح والجميلة تتأبط ذراعه . وبقدر ما كان يلعن قحته بقدر ما كان يعجب بها على نحو خفى ، ويتمنى فى أعماقه بعضا منها ، وأحزنه جدا أن يتفق اتجاههما فى الطريق على خلاف اتجاهه . ومضت الكواكب الثلاثة فى مداراتها دون أدنى تغير فى علاقاتها المشتركة ، أما عن كل فى ذاته فقد تتابع ظهور خواتيم الزواج فى أيديهم ، سبق المعتدل وتبعه فى نهاية العام الطويل وأخيرا

لحقت بهما الحسناء . ورغم ذلك فلم يقل الشغف بها كثيرا وان
بدا أن الطويل قد تخلى بصفة شبه نهائية عن أحلام المغامرة .
ولم يتغير شيء مما بين الثلاثة عندما قامت الحرب العالمية الثانية
وان تكن الدنيا قد اندفعت بجنون نحو التغيرات الفادحة .
زخرفت الصحف بعناوين المعارك الحمراء ، وتناقل المارة الأنباء
المثيرة ، وظهر الانجليز المدنيون والعسكريون بكثرة حتى فى
تلك الساعة المبكرة ، وفتح ثلاثة بارات فى الشـــارع العتيد ،
وانتقلت عدوى التغيير الى الفتاة نفسها أسوة بالدنيا من حولها ،
فثقلت مشيتها وشحب لونهـا ثم تكور بطنها وانداح تحت
الفستان التقليدى المسترسل بلا حزام ، أجل لقد حبلت العروس
الفاتنة . وتفحصها الطويل بعين صقر وبشيء من الغيظ متذكرا
امرأته ولكن امتلأت عينه بالعطف والشرود الغامض . وحبلت
امرأته ولكن امتلأت عينيه بالعطف والشرود الغامض . وحبلت
المرأة مرة ثانية قبيل انتهاء الحرب ، وثالثة أيام حرب فلسطين ،
ولعل أحدا من الثلاثة لم يكن يفطن حقا الى الزمن الا عندما
يقع بصره على الآخر . امتلأ عود الحسناء وتوارى فى الذاكرة
القد الرشيق الممشوق ، وأحدقت بالعينين الزرقاوين أنصاف
دوائر خفيفة لم تعد تخفى ، واستقرت بهما نظرة رزينة ، رزانة
الأعباء لا رزانة الدلال والصدود التى عرفاها قديما . واشتد
نحول الرجل الطويل وجرى المشيب فى سوالفه وشاربه وبرزت
عظام وجنتيه ، ومع أن المعتدل لم ير من تغير ذاته سوى شعيرات
بيضاء الا أنه لم يشك فى مدى تغيره الحقيقى كلما نظر الى

رفيقيه فانطوى صدره على توتر غامض كأنه صدى بعيد جدا لمـــا يقع حوله فى التاريخ والطريق . واستمر دوران الكواكب الثلاثة خلال أحـــداث جديدة ، فقد نشب فى القنـــال قتال مرير واندلع حريق القـــاهرة ثم انفجرت ثورة يولية . تزلزل المجتمع من جذوره وانهار البنيان المتداعى وأخذ نظام جديد فى التبلور واذا بالاعتداء الثلاثى يعترض الطريق كثور أعمى . وفى أتون حرب العدوان قدر لأولئك الثلاثة أن يجتمعوا فى مكان واحد لأول مرة . فقد انطلقت زمارة الانذار وفرقعت المدافع وهم يسيرون أمام مشرب لاجيثون . لجأ ثلاثتهم الى المشرب باندفاع عفوى فوجدوا به خادما واحدا يغسل أرضيته ، ومائدة واحدة صالحة لاستقبالهم فى أقصاه . شقوا سبيلهم اليها خلال قوائم من الكراسى المتراصة فوق بعضها ، ثم وقفوا مترددين قلقين ، ثم جلسوا ــ بدعوة من الخادم ــ حول المائدة المنفردة . وكلما ترامى انفجار تبادلوا نظرة باهتة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان الطويل أجرأهم على خرق جدار الصمت فقال :

ــ ولا أيام الحرب العالمية ..

فقال الآخر بحنق :

ــ المجرمون ! ... سرعان ما نســـوا هوانهم تحت أقدام هتلر !

وتواصل التعليق دون أن تشترك المرأة فيه ، ثم خف الضرب درجات فعاد الطويل يقول :

ـــ لا مدعاة للخوف فهم يضربون الأهداف .

وحدجته المرأة بنظرة جائعة للتصديق فابتسم اليها . تبدت عن قرب معتلية ذروة النضج الأنثوى وان شارف حسنها الوداع . وقال الطويل مدفوعا بأريحية طارئة :

ـــ خير ما نفعل أن تتناسى ما يقع فى الخارج .

ثم وهو يبتسم عن طاقم نضيد :

ـــ نحن نتقابل كل صباح منذ زمن بعيد جدا كالحلم ..

تفكر الآخر مليا ثم قال :

ـــ منذ عام ١٩٢٥ .

فالتفت الطويل نحو المدام وقال :

ـــ المدام ظهرت بعد ذلك ؟

انتزعت نفسها من التركيز المفعم بالقلق فى الخارج وهزت رأسها بالايجاب .

ـــ عمر طويل مرّ دون أن نتبادل كلمة واحدة !

وضحك ثم استطرد :

ـــ لذلك لا أعجب لخصام أمتين أو ثلاث!

وساءلت المرأة نفسها بتوتر :

ـــ متى ينتهى الضرب ؟

فقال بلهجة ودية جدا :

ـــ لا تخافى يا مدام ، سينتهى الضرب عاجلا ويذهب كل منا الى طريقه ولكنى أود أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق فكرة جميلة خطرت لى الآن فقط !

نظر اليه المعتدل مستطلعا فى غير حماس على حين نظرت المرأة فى ساعة يدها .

ـ سوف أحال الى المعاش بعد شهر واحد ، أى أننى سأنقطع عن رؤيتكما بعد تلك العشرة الطويلة العزيزة ..

فقال الآخر :

ـ وأنا أيضا سأحال الى المعاش فى نهاية هذا العام .

ـ هذا أدعى الى تحقيق الفكرة ، وهى أن نحتفل بذكرى لقائنا الطويل على مدى أكثر من ثلاثين عاما !

وقلب وجهه بينهما فى حماس وقد أخذ الهدوء يخيم فى الخارج رويدا وان لم تطلق بعد زمارة الأمان ، ثم قال :

ـ أود أن أدعوكما الى عشاء بسيط بمطعم كريسنتم بالهرم ، ما رأيك يا أستاذ ؟

فقال الآخر بنبرة سلبية :

ـ بكل سرور ان سمح الوقت !

ـ ستقبل الدعوة حتما خصوصا اذا قبلتها المدام ، ما رأيك يا مدام ؟

انتزعت المدام نفسها من قلقها مرة أخرى وتمتمت :

ـ لكن ...

ـ لا لكن البتة ، انه سلوك لا عيب فيه عندكم ، ودعوتى واضحة البراءة ، ورفضها غير انسانى ...

ابتسمت ابتسامة خفيفة اعتدها الرجل قبولا فبادر يقول :

ـ شكرا ، سنتفق على الميعاد فى صباح قريب .

اتفقوا على الميعاد صـــباح اليوم الثالث لوقف القتال . وتقابلوا فى ميدان التحرير ثم استقلوا تاكسيا الى كريستتم فبلغوه قبيل الغروب . وفى أثناء ذلك تم التعارف بينهم فقدم الطويل نفسه قائلا « على بركة ، مترجم » وقال الآخر « سيد عزت ، مدير حسابات » وقالت المدام « مدام ماتياس ، خياطة فى « ماى ستار » . وجلسوا فى حجرة خاصة يحجبها عن بقية المحل باب موارب يقوم خلفه براقان . وأوصى على بركة على عشاء حمام وكبد وأمر بكونياك . ونظر الى سيد عزت ورفع كأسه قائلا :

ــ لنشرب نخب شباب عام ١٩٢٥ ، أما أنت يا مدام فما زلت شابة !

فقالت ضاحكة :

ــ لا .. لا .. لا فائدة من الكذب ، أنت تعرف وهو يعرف .

وما كادت الكئوس تفرغ حتى طلب غيرها وهو يقول :

ــ لا ترفضا ، دعونا نشرب ، لن نسكر على أى حال ، وهى ليلة العمر .

ومضت الألفة تحل محل التحفظ ، ويشيع الدفء بتأثير الكونياك ولباقة على بركة وحيويته . وراح يقول :

ــ كان يجب أن نكون أصدقاء حميمين ، يتبادلون المودة والأسرار ، ولكن فات الوقت للأسف ، فلم يبق لنا الا أن نذكر شيئا من الأمور الجوهرية جدا لتمام التعارف ، أسعد حادث فى حياتنا مثلا أو أبقاه أثرا فى نفوسنا ؟ !

رحب سيد عزت بالاقتراح لا لشيء الا لأنه لم يكن يجد ما يقول ، فقال :

ــ لعل أسعد حادث صــادفني هو نجاح ابني الأكبر في الثقافة العامة بعدما يشبه اليأس ..

ونظر الرجل الى المدام مستطلعا كأنما كانت هي الهدف الحقيقي لاقتراحه فابتسمت قائلة :

ــ زواج ابنتي الكبرى ، ولكن الحادث الذي لا أنساه هو وفاة زوجي منذ أربعة اعوام .

كاد التهلل للخبر يفلت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيبة مصطنعة ثم هز رأسه في رثاء . وانتهز فرصة الصمت الذي تلا ذلك فطلب الكونياك لثالث مرة ، ثم ضحك مفتتحا صفحة جديدة وقال :

ــ أحداثي أنا لا تخلو من غرابة ، فأسعدها كان وفاة قريب آلت الى تركته ، وأتعسها جاءني منك أنت يا مدام !

ــ أنا !

ــ أجل وأنت تعرفين السبب .

فقالت متشجعة بفعل الكونياك الخفي :

ــ تعني مطارداتك لي في الشارع ؟

ــ أعني اعراضك عني حتى قبل الزواج .

ــ يا عزيزي ، أنت لم تكن جادا ..

ــ كيف عرفت ؟

ــ أنا أفهم ، أنت لم تكن جادا ..

وقال سيد عزت وهو يفرغ ثمالة كأسه :

ــ أنا موافق .

ــ أنت أيضا ! ، هل اختفت نواياى الطيبة الى ذلك الحد ؟

ــ لم تكن هناك أية نية طيبة !

ــ وأنت ؟ ! ، كنت تأكلها أكلا وتأكل نفسك !

فقال سيد عزت بتسليم :

ــ لا أنكر ذلك !

ضحك الرجل فى شماتة أما مدام ماتياس فقالت :

ــ لا أصدق .

ــ لماذا ؟

وجاء العشاء مع جديد من الكونياك فأقبلوا على الطعام والسؤال معلق والاهتمام به يعمق الى غير نهاية . وقالت مدام ماتياس وقد احمرت أذناها من الشراب :

ــ لى معك حكاية .

ــ أنا ؟ !

ــ كنت تنظر بقوة ، كل صباح ، قلت لنفسى حتما سيكلمنى يوما ما !

ــ حسبتك لم تلحظى شيئا ألبتة !

ــ هه ! ، قلت سيكلمنى ، وما أخَّره الا أنه مؤدب أكثر من اللازم على خلاف ..

قاطعها على بركة بضحكة عالية هاتفا :

ــ على خلاف الآخر القليل الأدب !

وهى تضحك أيضا :

ــ لا .. لا .. معذرة .. (ثم ملتفتة نحو سيد) .. واعتبرت المسألة مفروغا منها لدرجة أننى فاتحت ماما فى الموضوع ولكنها رفضت بشدة فكرة زواجى من مصرى !

صاح سيد عزت الذى أفقدته لذة الحديث لذة الطعام :

ــ الزواج ؟ !

ــ نعم .. وبسببك زعلت من ماما فأقمت مدة عند خالتى ..

ابتسم سيد فى ارتباكة حياء وسرور كما كان ينبغى أن يفعل عام ١٩٣٠ وإذا بعلى بركة يلكزه فى ذراعه قائلا :

ــ ضيعت على فرصة دون أن تنتفع بها ، صدق من قال ان رجال الحسابات معقّدون الى النهاية !

تمتم سيد عزت :

ــ لم أكن أعرف ! ، كنت يا مدام جادة جدا بصورة غير مشجعة .

ــ هكذا نصحتنى زميلة لى فى ذلك الوقت بماى سنتار ، كانت يهودية مولودة فى مصر ، قالت لى ان المصريين يعشقون المرأة اللعوب ولكنهم لا يتزوجون الا المتحفظة !

صاح على بركة بفم مكتظ بالحمام :

ــ نعم النصائح اليهودية !

فخاطبت المدام سيد عزت قائلة :

ـــ لكنك لم تتكلم ، حتى لم تحاول الكلام .

قال بارتباك :

ـــ كنت دائما أخاف من الافرنج !

ـــ تخاف ؟ !

ـــ نعم ، شيء قال لى انك مستحيل لأنك افرنجية ، وكلما فكرت فى الكلام عقد الخوف لسانى .

على بركة وهو يضحك فى تهكم :

ـــ مفهوم .. مفهوم .. اللائحة المالية لا تسمح بحب بين مصرى وافرنجية !

ـــ وكان مرتبى محدودا وكانت فكرتى عن الحب أنه باهظ التكاليف !

قالت المدام وهى تهز منكبيها :

ـــ انتظرت حتى خجلت من نفسى ، ثم كان أن تعرف بى مسيو ماتياس .

فقال على بركة معاتبا :

ـــ انتظرت الصامت وصددت المتكلم الفصيح !

انتهى العشاء ولكن الشراب لم ينته . وتجلت آثاره فى الخدود والأعين والألسن وارتفع الضحك .

وهتف على بركة بنبرة الظافر باقتراح سعيد :

ـــ عندى فكرة !

فنظرا اليه مستطلعين فقال :

ــ لنرقص !

قال سيد عزت :

ــ لا أعرف الرقص .

وقالت المدام :

ــ ولا توجد موسيقى .

قال « لا يهم » وقدم لها ساعده فقامت ملبية ، وأحاط خاصرتها بذراعه وراحا يرقصان . واذا به يضمها اليه حتى التصقا تماما . حاولت أن تتخلص منه عبثا . وتساءل سيد عزت فى ذهول :

ــ أى رقص هذا ؟ !

وقالت المدام فى اعياء :

ــ من فضلك .. عن اذنك ..

تمادى الرجل فى فعله وانعقدت فى عينيه نظرة مخيفة فصاح سيد عزت :

ــ خذ بالك ! .. المدام تعبانة ..

فقال بحدة :

ــ نحن هنا لا يدرى بنا أحد !

ودفعته المدام باعياء قائلة :

ــ ابعد .. دعنى ..

وقام سيد عزت . وبقيامه تأكد من أنه ثمل حقا . وضع يده على كتف الكهل الطويل وقال برجاء :

ــ على بيه ، اعقل ، لا تفضحنا !

فصاح به وهو يزيح يده بحركة من كتفه :

ــ اعقل أنت ، سيأتى دورك يا غبى !

وتأوهت المرأة متألمة فهتف سيد بغضب :

ــ دعها .. أقول لك دعها .. ألا تفهم ؟

وأمسك بذراعيه محاولا فكهما . جذبهما بأقصى ما استطاع من قوة . انضغطت المرأة بينهما حتى استشعر بضاضتها . تراجع خطوة وهو يضاعف من قوة جذبه وقد لفحه خجل آثم . وصاح على بركة بجنون :

ــ ابعد والا ...

ــ ستوقعنا فى فضيحة !

وهتفت المدام :

ــ سأصرخ .. أقول لك انى سأصرخ !

ودار سيد عزت حولهما حتى وقف وراءه فقبض على عنقه وشده منــه بلا رحمة حتى كاد أن يختنق فتراجع الى الوراء كالمتهاوى . وترنحت المدام ثم انحطت فوق الكرسى مغمضــة العينين . ولم يعد يسمع الا لهاثهم . خلا كل الى نفسه يضمد جروح روحه . المدام كالنائمة وعلى بركة مائل الى الجدار وسيد متقلص الوجه من الغثيان . وقال على بركة بحقد :

ـــ لن أدفع حساب أحد !

مدت المدام يدها الى حقيبتها ولكن سيد عزت أمسك بها بحنو وهو يقول له :

ـــ لن يدفع لنا أحد .

ورجعوا الى الصمت والاعياء . ثم خطرت لسيد فكرة فنادى الجرسون وقال له : « كأسان من فضلك » وقبل أن يختفى الرجل وراء البراقان قال له على بركة : « ثلاثة من فضلك » . وشربوا هذه المرة وكأنهم يتداوون ، فى صمت وبلا مرح . وراح على بركة يقطع الحجرة ذهابا وجيئة . ثم غادر الحجرة فغاب دقائق ثم عاد بوجه مغسول وأسارير هادئة . ونقل بصره بينهما ثم قال :

ـــ دفعت الحساب ، كله ..

فاحتج سيد عزت قائلا :

ـــ لا !

ـــ دفع وانتهى الأمر .

ثم بنبرة أرق :

ـــ لننس ما كان ، هذا خير ما نفعل .

وابتسم فيما يشبه الاعتذار . واقترب من سيد قائلا : « هات رأسك » ولثم جبينه قبل أن يفطن الآخر الى ما يريد . وتحول الى المدام مغمغما : « وهاتى رأسك » ثم لثم جبينها دون مقاومة من ناحيتها ، وقال ووجهه لم يزل فى مستوى وجهها :



وقبل أن يختفي الرجل وراء البراقان قال
له علي بركة : « ثلاثة من فضـــلك » ..

ـ آسف يا مدام ... الصلح خير !

وفجأة لثم فاها . ثم استقام متراجعا وهو يقول :

ـ قبلة الصلح ، وتحية للحلم القديم ، حلم تراءى لى قبل موت سعد زغلول !

على ذلك غادروا المحل . أمسك بيسراها داعيا الآخر للامساك بيمناها وسار ثلاثتهم فى جو مائل للبرودة . والقمر متوار وراء سحابة مفضضة . وتراءى الخلاء فى ظلام حتى الأنوار المتباعدة الباهتة فوق المقطم كعقد من النجوم . وضحك الرجل وقال :

ـ فلنتذكر أغنية جميلة يعرفها ثلاثتنا لنغنيها معا !

یوم حافِل

ـ لا ..

قالها بحدة وهو يقطب ، ثم رشف رشفة من قدح الشاى . وركز عينيه فى القدح ليتجنب عينى زوجته ولكنها قالت محتجة :

ـ كنت متوقعة هذا الرد !

ـ حسن ، لم لم تعفى نفسك منه ؟ !

ـ لأن المرأة مسكينة حقا .

قال وهو يهز رأسه هزة الخبير بالعالم والناس :

ـ شياطين خبثاء .

ـ اقرأ العريضة لعلك تقتنع بأنها مظلومة حقا .

ـ قلت شياطين خبثاء .

ـ أنت تعلم أن زوجها وهب الوزارة عمره كله فلأسرته حق فى المساعدة التى يجيزها القانون .

ـ وهب الوزارة عمره !.. ، اعلمى أن تسعين فى المائة من موظفى الحكومة نباتات طفيلية تتغذى بدون وجه حق .

ـ متى تغير بالله من طبعك ؟

رمقها بنظرة باسمة باردة لا يمكن أن تنبت أملا فحل صمت غير قصير ، ثم سألها بنبرة جديدة وهو يقوم عن المائدة :

ـــ كيف حال الولد ؟

فلم تجب احتجاجا ، ولما كرر السؤال قالت باستياء :

ـــ نام ليلة أمس نوما هادئا ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة .

واستقل سيارته وهو يأمر السائق قائلا « جروبى » . انطلقت السيارة تقطع الكورنيش مخلفة وراءها المعادى . وفتح الجريدة فتصفح العناوين الكبيرة بسرعة حتى استقر بصره فوق صفحة الوفيات . طالع أسماء الراحلين أما الأقارب فسكرتيره الخاص يتولى أمرهم . متى يطالعك اسم على كامل بالخط العريض ؟ . سوف تشيع جنازته بكل اجلال وتؤدى له جميع الواجبات ولكن متى ؟ . ذلك الرجل العنيد المصاب بتصلب الشرايين . وهو يعاندك ويتوهم أنه يحافظ على كرامته وكأنه لا يخشى قوتك التى يعمل لها كل انسان ألف حساب فمتى ؟ . كما قرأت يوما اسم حسن سويلم . فى مثل هذه الجلسة فى نفس السيارة فى نفس الطريق . يومها بدأت بالنظر فى صفحة الوفيات فكان اسمه أول ما وقع عليه بصرك . البقاء لله .. حسن سويلم .. مراقب عام الايرادات . متى يا على كامل ؟

ـــ انظر أمامك !

صاح بالسائق بعنف فحول الرجل عينيه بسرعة عن أسراب حمام تطير فوق سطح النيل كسحابة بيضاء . واكفهر وجهه لحظات ثم انبسطت صفحته رويدا . آخر مشاحنة جرت بينك وبين المرحوم حسن قبل وفاته بشهر . يا حسن بك .. أنا الذى يقرر متى يجب تقديم مشروع الميزانية . ولكن ذلك من صميم

اختصاصى يا كريم بك . آه ... لا تضطرنى الى سحب العمل من يديك .. أنت تعرفنى جيدا . اذن اسمح لى أن احتج على هذه المعاملة فلست أنا بالموظف الصغير . لو امتد به الأجل لكان اليوم منافسك الأول دون منازع . ولكن الجسم الفاسد لا يخلو من دمامل . ها هو على كامل ذو الشرايين المتصلبة ، ماذا يريد ؟ .

وقفت السيارة أمام جروبى فغادرها ثم دخل المحل . أجال بصره فى أنحاء المكان حتى رأى الأستاذ على فمضى اليه ثم صافحه بحرارة قائلا :

ـــ صباح الخير ، تهانى على مقالتك الأخيرة .

ـــ أعجبتك حقا ؟

كرر اعجابه وهو يجلس . وطلب قهوة وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى فقال الأستاذ :

ـــ الظاهر أنك وفقت .. ؟

دس يده فى جيبه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ وهو يقول :

ـــ قنبلة العام !

ـــ حقا ؟

ـــ سوف تنفجر تحت أقدام نسيم البحيرى المأفون المغرور .

ـــ أنت متأكد من صحتها ؟

ـــ وثائق لا يرتقى اليها شك .

ــ لا أريد أن أعرض الجريدة لقضية خاسرة !

ــ الله يعلم كم كلفنى الحصول عليها من حيلة ومال .

ــ ان لم تقض على البحيرى فستقضى على !

ــ ستقضى على البحيرى وحده .

تبادلا نظرة طويلة ثم قال كريم :

ــ سيكون نصرا للجريدة !

ــ ولك أنت .

ضحك كريم ضحكة أضخم بكثير من جسمه النحيل الدقيق فتمتم الصحفى باسما :

ــ أنت رجل جبار حقا !

ــ أنا رجل مستقيم ونظيف، فلا يهمنى أن أرمى بعد ذلك بالقسوة .

وقرأ فى عينى الصحفى نظرة لم يفهمها تماما فقال :

ــ أنت أيضا تكرهه .

ــ سأنشر الوثائق للمصلحة العامة ولا دخل لعواطفى فى ذلك .

ــ حسن وأنا أخدم المصلحة العامة بطريقتى كذلك .

وقام مادا له يده فصافحه وهو يسأله عن صحة ابنه فقال وهو يمضى عنه :

ــ لا بأس به ولكن الحـــرارة ما زالت مرتفعـــة ، شكرا لسؤالك عنه ..



دس يده فى جيبه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ

استقل سيارته الى مكتب الأستاذ يوسف عبد الرحمن المحامى الذى استقبله بترحاب وهو يقول :

ــ مبارك يا كريم بك ، قرأت اسمك أمس بين المرشحين .

ــ شكرا يا عزيزى ، خبرنى عن جلسة أمس .

ــ تأجيل لتقديم مذكرات .

ــ وماذا عن مركزنا ؟

ــ عال جدا ، أنا مطمئن كل الاطمئنان .

ــ اذن سيركع فهيم الدسوقى ؟

ــ أجل ، ولكن ثمة جديد .

ــ ما هو ؟

قال المحامى بصوت أخفض درجة :

ــ تلويح بالصلح !

ــ صلح ؟!

لفظها كذبابة فقال المحامى :

ــ سوف تحترم شروطك بطبيعة الحال .

ــ ولو !

ــ وهو على أى حال ابن عمك .

ــ هذا مبرر للعداوة !

ــ أهذا هو رأيك الأخير ؟

ــ حتى النهاية .

وذهب الى مكتبه بالوزارة ثم طلب فى التليفون رقما .

ــ آلو .. على ؟ .. صباح الخير .

ــ ...

ــ عندى لك خبر مهم جدا ..

ــ ...

ــ اقرأ غدا صحيفة الكوكب .

ــ ...

ــ نسيم البحيرى قضى عليه الى الأبد .

وضحك طويلا حتى ارتجت لضحكه أركان الحجرة الكبيرة الصامتة . واستقبل مدير مكتبه الذى عرض عليه البريد وبعض الموضوعات العاجلة . وجاء على أثره على كامل فتبادلا الآراء فى مسائل شتى ووجهاهما يعكسان برودا سافرا . وعندما وقف على كامل استعدادا للذهاب سأله كريم بدافع شيطانى مباغت :

ــ كيف الصحة ؟

فأجاب الآخر فيما يشبه التحدى :

ــ لم تكن شرايينى فى وقت من الأوقات خيرا مما هى الآن .

عنيد مكابر كذاب . وجهك الشاحب المتغضن يفضحك . وعما قليل ستعتذر عن تخلفك الاضطرارى عن اجتماعات المساء . على كامل ، البحيرى ، الدسوقى ، وعشرات غيرهم . كائنات نخرها السوس فلم يبق منها الا على عناد وحقد . أنت بحاجة الى مدفع سريع الطلقات لتطهر منهم الحياة . وسوف

ننتصر كما انتصرت دواما . حياتك سلسلة من المعارك متوجة بالانتصار . فى ذلك متعتك وكرامتك فى الحكومة أو النادى أو القرية . منذ نشأتك الأولى وأنت مناضل كأنك تعيش فى حلبة ملاكمة . النضـــال هو روح الحياة وسرها أما القيم المعسولة الجرعة فهى آفات الحياة . والرجال يضمرون لك اعجابا لا حد له وان رددت ألسنتهم خلاف ذلك فعن خوف أو حسد . حتى الوزير نفسه استدعاه يوما وقال له :

ـــ يا سيد كريم لماذا تثير الزوابع دائما ؟

فتساءل بأدب واعتزاز معا :

ـــ سيدى الوزير هل أنا رجل صالح للعمل ؟

ـــ لم أطعن فى ذلك أبدا .

ـــ ونظافتى ؟

ـــ على خير ما يرجى .

ـــ وعند الخلاف مع الآخرين أين تجد سيادتكم الحق ؟

ـــ ولكنك تغالى فى العنف حتى لينقلب الوضع فكأن الحق مع خصمك .

ـــ هكذا خلقنى الله !

فقال الرجل بنبرة لم تخل من ضجر :

ـــ حتى العنف فى الحق يجب أن يقف عند حد .

وعند الظهر رأس اللجنة المالية . وتفانى فى العمل كعادته

فلم يبال بالوقت . ومرت ساعتان عقب وقت الغداء وهو يختلس من حين لآخر النظر الى الوجوه المتعبة المتألمة ، ويتربص بكلمة تذمر أو شكوى . وفى صدره لعبت عواطف ماكرة كشقاوة الأطفال . ولما أشبع طاقته فى العمل والتعذيب فض الجلسة . واتصل بزوجته بالتليفون فسألها عن الولد :

ــ لا بأس به ولكنى استدعيت الطبيب لأن الحرارة لا تريد أن تنخفض .

ــ بخير ان شاء الله ، لن أعود قبل العاشرة مساء بسبب العمل !

وفكر فى مسألة مرض الأطفال وهو يتناول غداءه بالنادى . قال ان الأطفال ما كان يجب أن يمرضوا على الاطلاق . المرض ــ اذ لم يكن منه بد ــ فهو ظاهرة تطرأ على الجهاز البشرى عقب طعونه فى السن أما الطفل فلا يمرض الا لخلل فى الكون . وقد كان ــ هو ــ سليما عند الزواج كما كانت كذلك درية زوجته ، وولد رمزى آية فى الصحة والجمال فما معنى المرض اذن ؟ .

ومضى الى حجرة التليفون فانبسطت أساريره لأول مرة ، لأول مرة سرت ابتسامة فى غضون الوجه الصارم الكالح :

ــ آلو .. هنومة ؟ .. كيف الحال ؟

ــ ...

ــ عال ، هذا يعنى أنه لن يعود اليوم !

ــ ...

ــ اذن تتقابل فى السابعة ؟

ــ ...

ــ اعملى حسابك على ساعتين على الأقل ، الى اللقاء يا محبوبة !

واستقل السـيارة وهو يقول للسائق « بار الأنجلو » . سيمكث هنالك ساعة ثم يمضى الى هنومة . أمرأة مثالية فى غرامياتها . وزوجها البدين يتوهم أن البدانةممكن أن تجعل من رجل زوجا موفقا . وهو يجىء الى بار الأنجلو فينهمك فى لعب الطاولة مقامرا بمبالغ ضخمة ، ومرة قاوم اغراء غريبا بصفعه على قفاه . أما البحيرى فموعده الغد . سوف يصعق عند مطالعة الجريدة واذا انتحر فسيثبت بانتحاره أن سوء ظنه به لم يكن صوابا على طول الخط . واضطر السائق الى ركن السيارة فى آخر الطريق عند أول موضع خال فغادر السيارة ليتم طريقه مشيا على الأقدام . سار فوق الطوار بجسمه النحيل الدقيق يطالع الدنيا بوجه صارم شبه متقزز . ومر بمحل لبيع التحف اليابانية فدخله دون سابق تفكير لابتياع هدية لهنومة . اختار شبشبا مناسبا تماما للاستعمال فى مسكنهما السرى بالهرم . وواصل مسيره نحو البار . وعند أول منعطف قبل المقهى ، وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، وجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول فتراجع بسرعة هاتفا « يا ولد يا كلب » . كان الغــلام يبول فى علانية اســتعراضية ، وشــقاوة وشت بسروره بما يفعل . وقد انطلق البول متلألئا تحت أشعة الشمس فى هيئة قوس

والغلام يدفعه بحركاته الذاتية الى أقصى مدى يستطيعه . تراجع كريم بك فى شبه فزع فزلت قدمه فهوى على ظهره فارتطم مؤخر رأسه بحافة الطوار . ذعر الغلام فولى هاربا . ووقف المـــارة القريبون ليشـــاهدوا الحدث الغريب وهم بين الرثاء والابتسام ولكن كريم بك استلقى فى اغماء لا شك فيه . وهرع اليه بعض ذوى النجدة ليسعفوه . وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

ـــ يا لطف الله ... الرجل جثة هامدة !

فهرست

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	« «	١٩٦٣
رادوبيس	« «	١٩٤٣	« الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	« «	١٩٤٤	« «	١٩٦٤
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	« «	١٩٦٢
خان الخليلي		١٩٤٦	« السادسة	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	« الخامسة	١٩٦٣
السراب		١٩٤٨	« الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	« الخامسة	١٩٦٣
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	« «	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	« «	١٩٦٢
السكرية		١٩٥٧	« «	١٩٦٤
اللص والكلاب		١٩٦١	« الثالثة	١٩٦٤
السمان والخريف		١٩٦٢	« «	١٩٦٥
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣		
الطريق	رواية	١٩٦٤		
بيت سيىء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥		

تحت الطبع :

أولاد حارتنا	رواية
الشحاذ	«

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"





دار مصر للطباعة   الثمن ٢٥ قرشا